

٦



مقالات مختارة
من الأدب الإنجليزي

تعريب

محمد بدران

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سلسلة الفكر الحديث

مقالات مختارة

من الأدب الانجليزى

تعريب

محمد بدران

العدد السادس

الثمن ١٦ مـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقالة نوع من الكتابة الأدبية نعرفها ولا نستطيع أن نعرّفها . وهى من الكتابات القابلة للنماء والتطور على يد الكاتب الواحد فى أثناء حياته وعلى يد الكتاب فى العصور المختلفة . وفكرة المقالة فى العصر الحاضر تختلف كثيرا عن فكرتها فى بداية عهدها .

وقد حاول بعض كتاب المقالات فى العصور المختلفة أن يعرّفوا المقالة . وأكبر الظن أن مدلولها لم يكن واضحا محدداً فى أذهانهم قبل أن يكتبوا مقالاتهم ، وأنهم عرفوها بحيث ينطبق التعريف على ما كتبوا . وأول من أطلق هذا الاسم على كتاباته النثرية من الكتاب الإنجليز هو فرنسس بيكن ، وقد وصف مقالاته بأنها « مذكرات موجزة يعنى فيها بمعانيها لا بأسلوبها » . ويقول فى الكلمة التى صدّر بها الطبعة الأولى من هذه المقالات إنها « أفكار متقطعة » . وليست مقالات بيكن فى حقيقة الأمر إلا مجموعة من الحكم والأمثال استمدها من تجاربه الطويلة عن الناس وعن الأشياء . وكان بيكن نفسه يعدها مجرد هيا كل من المعانى يملأ القارئ فراغها حسب تفكيره الخاص ؛ وكثير من أمثاله وحكمه صالح لأن يكون موضوع مقال مستقل ؛ وقد لا توجد بين عباراته رابطة قط ، ومع ذلك فإن من جاء بعده من الكتاب وجدوا فيها ثروة لا تنفد من الموضوعات ومن الأمثال ، كان لها أعظم الأثر فى كتاباتهم .

ولكن الفضل فى تطور المقالة الإنجليزية بعد عصر بيكن يعود إلى الكاتب الفرنسي الشهير منتانى **Montaigne** الذى كان معاصراً لبيكن والذى نشرت مقالاته فى عام ١٥٨٠ قبل أن تنشر مقالات بيكن نفسه بسبعة عشر عاما ؛ وقد حاول هو الآخر تعريف المقالة حين قال فى مقدمة كتابه :

« لم أكتب هذا الكتاب لأجنى منه نفعاً أو أنال به مجداً ؛ ذلك أن مواهبي أقل من أن تسمو بى إلى هذه الغاية ، وأن من أصدقائى وأقاربى من هم أقدر على بلوغها منى . أما أنا فقد حاولت أن أترك لهم صورة من نفسى ، خالية من الصناعة والزينة ، يرون فيها عيوبى ونقائصى ، لا أخفى منها إلا مالاتسمح به التقاليد والآداب السائدة فى هذا العصر . ولو أننى أسعدنى الحظ فعشت بين الأمم التى لا تزال تعيش على فطرتها ، لم يفسدها العرف أو القانون الوضعى ، لعرضت على القارئ صورة كاملة سافرة من نفسى . ومع ذلك فإنك أيها القارئ الكريم واجد شخصيتى أساس كتابى هذا ؛ ومن أجل ذلك لا أشير عليك أن تصرف وقتك فى هذا الموضوع التافه الذى لانفع فيه » .

وإذاً فقد كان منتانى يفهم من المقالة مايفهمه منها أدسن واستيل ولام وغيرهم من الكتاب الإنجليز فى القرن الثامن عشر ، وهو أن المهم فى المقالة ليس موضوعها بل شخصية كاتبها وقدرته على أن يشعر الناس بهذه الشخصية ، وأن الرابطة التى تؤلف بين أجزائها هى مزاج الكاتب العقلى وقت كتابة المقالة ؛ فهى تنمو حوله كما تنمو الشرنقة حول دودة القز ، حتى إذا ما انتهى القارئ من قراءتها وجد شخصية كاتبها هى المحور الذى تدور

عليه ، سواء كانت هذه الشخصية ظاهرة أو مستترة . ويصدق هذا على أدسن واستيل ولام وهازلت وجولد سمث كما يصدق على كثيرين من كتاب هذا الجيل أمثال هَدْسُن وجولزورذى .

ووصف صمويل جنسن Samuel Johnson المقالة بأنها « وثبة من وثبات العقل أو قطعة أدبية مفككة غير منتظمة ولا مهضومة » . وهذا الوصف إن صدق على بعض مقالات جنسن لايصدق مطلقا على ماسبقها من المقالات ، كمقالات بيكن ومقالات أدسن واستيل ، ولا على ماجاء بعدها كمقالات كبار الكتاب فى القرن الثامن عشر أمثال لام وهازلت ، والتاسع عشر أمثال مكولى . فأما مقالات بيكن فقد تكون وثبات من وثبات العقل غير متماسكة ، ولكنها مع ذلك وثبات يشع منها الذكاء ويسرى فيها كلها التفكير العميق ، وكل عبارة منها تمثل فكرة خالدة هى نتيجة لتجارب عهد طويل . وأما مقالات من جاء بعد جنسن من الكتاب ، ومقالات الأدباء المحدثين ، فهى أبعد ماتكون عن الآراء الفجة المفككة غير المنتظمة وغير المهضومة . وحسبك أن تقرأ مقالات مكولى التاريخية والانتقادية لترى الدرس العميق ، والتسلسل المنطقى ، والارتباط المتين يسرى فى كل مقالة منها من بدايتها إلى نهايتها .

وأما الكتاب المتأخرون فقد توسعوا فى معنى المقالة فعرّفوها بأنها بحث قصير فى موضوع أدبى أو انتقادى أو فلسفى أو أخلاقى أو اجتماعى ؛ فهى عندهم تشمل الرسائل والأبحاث القصيرة فى الموضوعات الأدبية والانتقادية ، والعلمية أحياناً ؛ وحتى شرط القصر لم يتمسكوا به ، فلم يروا

مايمنع من تسمية كتابات لك Locke وبيرك Burke الفلسفية ، وكتابات مكولى التاريخية والانتقادية مقالات[1] .

ومهما اختلف الأدباء فى تعريف المقالة ، وسواء كانت موجزة أو مسهبة ، محكمة أو مهلهلة ، جادة أو هازلة ، تدور حول شخص الكاتب أو حول موضوعه ، فإنها تشتمل على فكرة واضحة متبلورة ، وقد اختارلها كاتبها موضوعاً واحداً وعبّر عن أفكاره فيه بأسلوب يرى أنه هو الأسلوب الذى يسر القارئ ويحبب إليه القراءة . وسواء كان هذا الأسلوب محكما مركزاً ، أومفككا نثاراً ، فإن القارئ يجد نفسه دائماً يحوم حول الفكرة الرئيسية فى المقالة ، وهى فى العادة أقرب إلى المسارّة بين الأصدقاء منها إلى الكتابة العلمية العامة لجمهور الناس . فأنت حين تقرأ المقالة تشعر أنك تعرف القارئ معرفة الصديق ، وأنك شريك له فى آرائه عن الأشياء التى تلذه ، وتحس أنه يريد أن يدخل السرور عليك ويطرد السآمة والملل عنك .

وقد شمل موضوع المقالات الأدبية كل شىء « من الذرة الحقيرة إلى الشمس الكبيرة ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن كوخ الفلاح إلى قصر الملك ، ومن الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل ، ومن أقبح قبيح إلى أجمل جميل ، ومن الحياة إلى الموت ، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة »[2] ، ومن يد المكنسة والسخف ولا شىء إلى المجد الزائل وسمو المقصد ، ومن

---

(١) أمثال Essay Concerning Human Understanding للك .
Essay on the Sublime and Beautiful لبرك
Critical and Historical Essays لمكولى
(٢) من مقال للأستاذ أحمد أمين بك .

الحقيقة الواقعة إلى الخيال . وبالجملة فإن كتاب المقالات لم يروا شيئاً أحقر ولا أعظم من أن يتناولوه بأقلامهم ويعرضوا على القراء أفكارهم فيه .

ولعل الرسائل الأدبية كرسائل ابن المقفع هى أقرب الكتابات الأدبية إلى المقالات . ولو أنها تطورت على مر الزمن كما تطورت المقالة الإنجليزية فاتسع نطاقها وخلصت من التكلف ومن المحسنات اللفظية ، لكان لها فى الأدب العربى ما للمقالة فى الأدب الإنجليزى من أثر بليغ .

والمقالة فى اللغة الإنجليزية أحب أنواع الكتابة الأدبية إلى جمهرة القراء وأكثرها انتشاراً بينهم . ذلك أن القراء ذوى الثقافة المتوسطة يسرهم تنوع موضوعاتها ، وقلة عمقها ، وما يتخلل الكثير منها من فكاهة حلوة ، فهى بذلك تختلف عن الرسالة التى توافق الرجل الدارس الذى لا يقنع بالكتابة السطحية الموجزة .

وإذا قلت إن بيكن ومنتانى هما أول من أطلق هذا اللفظ فى اللغات الأوربية على هذا النوع من الكتابة ، فليس معنى هذا أنهما خلقا المقالة من لا شىء ؛ ذلك أن من الكتاب قبل بيكن وقبل منتانى من نستطيع أن نختار لهم بعض ما كتبوا ونسميه مقالات . ولكن هؤلاء الكتاب فى حقيقة أمرهم أشبه برجل مُلْيَير الذى ظل يتكلم النثر طول حياته وهو لا يعرف أنه يتكلم نثراً . فقد كتبوا قطعاً أو أجزاء من مقالات من غير أن يدركوا ما يفعلون ، وليس فى وسع الناشرين أن ينتزعوا هذه القطع مما حولها ويثبتوها فى كتبهم على أنها مقالات ، بل هى ومضات خاطفة تنبىء بالغيث المقبل وليست هى الغيث نفسه .

وتطورت المقالة فى تاريخها الطويل من أيام بيكن ومنتانى ، أو من قبلها ، إلى العصر الحاضر ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى ينمو ويتطور ويختلف عن مثله الأول وإن لم يقطع صلته به .

وتاريخ المقالة الإنجليزية منذ القرن السابع عشر شديد الصلة بالنوادى والمقاهى Coffee Houses التى كانت كثيرة الانتشار فى ذلك الوقت . وفى وسع القارئ أن يجد جو المقاهى والنوادى سارياً فى جميع أدب ذلك العصر . وسبب ذلك أنها كانت مجمع الأدباء ، وأن زعماء الأدب المسيطرين عليه كانوا هم الذين يوجهون الذوق الأدبى ، وأن المنزل فى ذلك الوقت لم يكن محور الحياة الاجتماعيــة بل كان محورها المقهى والنادى . ولذلك كان هو الموحى بكثير من موضوعات المقــالة الأدبية . ترى ذلك واضحاً أتم وضوح فى مقالات أدسن واستيل وصمويل جنسن وجولد سمث .

وفى وسع من يتتبع تاريخ المقالة أن يقسمه إلى العصور الآتية :

(١) العصر الأول . ويشمل نشأتها فى أواخر القرن السادس عشر على يدى بيكن ، إذا صح أن نسمى « مذكرات بيكن المختصرة التى عنى فيها بمعناها لا بأسلوبها » مقالات ، فهى كما قلنا أشبه بمجموعات من الأمثال والحكم ينقصها الارتباط والانسجام ، ويصدق هــذا أيضا إلى حد ما على مقالات بِنْ جُنسن Ben Jonson .

(٢) العصر الثانى : ثم خطت المقالة أولى خطواتها نحو السهولة والارتباط على يدى أبرهام كَوْلِى . فلمــا جاء دريدن وخلص النثر الإنجليزى فى التعقيد اللفظى والمحسنات ، وجعله صالحا للتعبير عن أغراض الحياة العادية ، كان لعمله هــذا أعظم الأثر فى المقالة الإنجليزية ، فتحسن

أسلوبها ، وتعددت موضوعاتها ، وأصبحت سهلة على الكاتب محببة إلى القارئ .

(٣) العصر الثالث : والقرن الثامن هو عصر المقالات الذهبي ، ففيه انتشرت المقالات الدورية فى المجلات والصحف ، ولم يترك كتابها موضوعا إلا طرقوه ؛ وبلغت المقالة فيـه الذروة فى ثلاثة عهود بينها فترتا ضعف نسبي . فالعهد الأول هو عهد الكاتبين الكبيرين استيل وأدسن ، والثانى هو عهد صمويل چنسن وجولد سمث ، والثالث عهد لام وهازلت . ولعل أهم سبب من أسباب الضعف الذى طرأ على المقالة فى الفترتين اللتين تتخللان هـذه العهود الثلاثة ذلك المستوى الرفيع الذى بلغته فيها ، فانصرف الكتاب حينا من الدهر إلى ميادين أخرى ، يكونون فيها أقدر على إظهار مواهبهم كميادين الروايات والمسرحيات ، وظلوا كذلك حتى توارت شخصية الكتاب العظام ، فلم يعد الكتاب الجدد يخشون أن يصدروا صحفا وينشئوا مقالات على غرار الصحف والمقالات التى توارت بموت أصحابها .

(٤) العصر الرابع : وبدأت المقالة من جديد فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم تـكن موضوعاتها فى هذه الفترة مقصورة على المدينة وما فيها ، بل جارت روح العصر فانتقلت كما انتقل الشعر إلى الريف . وأعظم من يمثل هـذه الفترة من الكتاب لِى هَنْت Leigh Hunt ؛ وقد أخذ يترسم خطى أدسن وجولد سمث وإن كان ينقصه مواهبهما وشعورهما المرهف وفكاهاتهما الحلوة . وظهرت فى القرن التاسع عشر طائفة كبيرة من الكتاب منهم مكولى صاحب السير والمقالات التاريخية والانتقادية الشهيرة . ولقد خلت هذه المجموعة من مقالات هـذا الكاتب العظيم لأن

مقالاته تختلف كل الاختلاف عما يضمه هذا الكتاب بين دفتيه ، ولأن كل واحدة منها تصلح لأن تكون كتابا مستقلا ؛ ولعلنا نوفق إلى عرض نماذج منها على القراء .

(٥) العصر الخامس : وفى بداية هذا القرن — القرن العشرين — ظهرت طائفة جديدة من كتاب المقالات لاتدور مقالاتهم حول شخصية الكاتب أو عيوب المجتمع ، بل تدور حول الموضوعات العامة التى تشغل الأذهان فى هذا الجيل ، وإن كانت المقالة الأدبية لم يعد لها ذلك الأثر القوى والشأن العظيم اللذان كانا لها طوال القرن الثامن عشر وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولقد كانت المقالة عظيمة الأثر فى إنجلترا من الناحيتين الاجتماعية والأدبية . فأما من الناحية الأدبية فهى الوسيلة التى برزت بها إلى الوجود مواهب كثيرين من الأدباء الناشئين الذين أفادوا العالم بحكمتهم وفكاهتهم ؛ كذلك كانت المقالة الأدبية منشأ القصص الروائى ، كما كانت سببا فى وجود النقد الأدبى الذى بلغ مستوى رفيعا على يدى مكولى .

وكانت المقالة الدورية لقِصَرها وأسلوبها السلس الخفيف ، وموضوعها الهين غير العميق ، سببا فى خلق جمهور من القراء يرقب ظهورها ، ويقبل على قراءتها ، ويتحدث بما فيها من نقد وفكاهة ؛ وبذلك حببت إلى الناس الدرس والقراءة .

هذا من الناحية الأدبية . وأما من الناحية الاجتماعية فقد كان للمقالة فى القرن الثامن عشر فضل كبير فى تطهير المجتمع الإنجليزى من كثير مما فيه من العادات الذميمة والعيوب الأخلاقية الصغيرة ، وذلك بنقدها

اللاذع الذى كان يسلك سبيل الجد أحيانا والفكاهة أحيانا أخرى .

وقد حرصنا فى هذا الكتاب على أن نختار من المقالات أكثرها ملاءمة للقارئ العربى ، فلم نختر ماهو إنجليزى بحت لا من ناحية الموضوع ولا من ناحية التفكير ، ولا ماهو شديد الصلة بموضوع محلى خاص .

ولقد حرصنا كذلك على أن تكون المقالات متنوعة فى موضوعاتها وأسلوب كتابتها ، فهى تختلف بين الجد والفكاهة ، والخيال والحقيقة ، والسارة والمحزنة ، والطويلة والقصيرة . ولم نختر لكاتب واحد أكثر من مقالين إلا لكاتب واحد من كبار الكتاب هو أدسن ، ومع هذا فإن مقالاته التى اخترناها متنوعة غير متشابهة فى موضوعها حتى لكأنها لكتاب مختلفين

ولقد حاولنا أن نجعل أسلوب هذه المقالات أقرب ما يكون إلى الأسلوب الإنجليزى فى بساطته وخلوه من الزخرف والمحسنات اللفظية .

وإذا كان هذا الكتاب قد خلا من آثار بعض كبار الكتاب فعذرنا أنه مهما كبر لا يتسع لكل كاتب ولكل مقال ؛ ففى الأدب الإنجليزى من المقالات الجيدة ما يملأ مائة من أمثال هذا الكتاب ؛ ولعل الله يوفقنا إلى أن نتبعه بجزء ثان له فى القريب العاجل .

المراجع التى اخترت منها هذه المقالات

1— A Hundred English Essays.
2— Bacon's Essays.
3— English Essays by Lobban.
4— The Spectator Essays from I to L.
5— Selections from the Spectator.
6— Essays of Elia.
7— Junior Modern Essays.
8— Still Lighter Essays.
9— Essays by Modern Masters.
10— More Essays by Modern Masters.
11— The Shape of Things to Come
12— Selected English Essays.
13— Essays and Sketches.
14— A Book of English Essays.
15— Selected Essays.
16— Modern Literary Essays.
17— Selections from the Best English Authors.
18— Critical Essays of To-day.
19— More English Essays.
20— Modern Essays.

واعتمدت فى الكلمة التى قدمت بها كل كاتب من الكتاب على بعض الكتب السابقة وعلى :

1— The Encyclopaedia Brittanica.
2— Who is who.
3— The Century Cyclopaedia of Names.
4— Macaulay's Critical and Historical Essays.

فى التجـــديد

بقـــلم

فرنسس بيكن Francis Bacon

١٥٦١ — ١٦٢٦

[ولد من أبوين واسعى الثراء ، فتعلم وتهذب ، وشغل عدة مناصب عالية فى الحكومة وفى بلاط الملكة إليصابات والملك چيمس . وأنعم عليه بلقب لورد فى عام ١٦٢١ ، ثم اتُّهم بالعبث فى توزيع العدالة ، وحكم عليه بالسجن والغرامة ، وحرمانه من تولى أى منصب فى الدولة . وأهم ما أفاده العلم منه هو توكيده أهمية الاعتماد على التجارب لا على الجدل المنطقى فى الكشف عن الحقائق ؛ وهو صاحب الطريقة الاستقرائية فى المنطق ، وقد وضحها فى كثير من كتبه العلمية .

وتقوم شهرة بيكن فى الأدب الإنجليزى على مقالاته التى يقول عنها إنها « مذكرات موجزة » و « خواطر متناثرة » . وقد نشرت الطبعة الأخيرة منها المحتوية على ثمان وخمسين مقالة قبل وفاته بعـام . وكثير من مقالاته الأولى عبارة عن مجموعة من الأمثال والحكم ، ولغته بوجه عام شعرية خطابية ، تحتوى كثيراً من التشبيهات والاستعارات ؛ وجمله قصيرة ، ولكنها من جوامع الكلم ، توحى إلى قارئها بأكثر مما فيها من المعانى . وهى من حيث وضوحها وقوة تأثيرها لا نظير لها فى اللغة الإنجليزية]

١

كل جديد يكون فى بداية أمره مشوهاً سمجاً ، مثله كمثل الكائنات الحية عندما تولد ، لأن الجديد من مواليد الزمان . ومع ذلك فإن المثال الأول — إذا كان جيداً — قلما يرق إلى مستواه ما يجىء بعده[1] مقلداً له . ألا ترى أن أول من يرقون إلى مراتب الشرف من الأسر يكونون فى الأغلب الأعم أعظم ممن يخلفونهم ، وأن من يجىء بعدهم قلما يرق إلى مستواهم ؟ وسبب هذا أن الشر الذى يلتئم مع الطبيعة البشرية الفاسدة يقوى ويعظم أثره على مر الزمن ، كالحجر الساقط من مكان مرتفع تزداد سرعته كلما طال تحركه ؛ أما الخير ، وهو حركة للنفس اضطرارية ، فهو أقوى ما يكون فى البداية .

ولا جدال فى أن كل دواء مبتكر هو فى حد ذاته تجديد ؛ فإذا لم ينتفع الإنسان بوسائل العلاج الجديدة عرض نفسه حتما إلى الأمراض الجديدة .

والدهر لا ينفك يحدث شروراً جديدة ، فإذا كان دأبه أن يبدل الأشياء إلى أسوأ مما كانت ، وإذا كان العقل والنصيحة لا يصلحان ما يفسده الدهر ، فماذا تكون النتيجة ؟

لسنا ننكر أن ما تقره العادة يكون على الأقل ملتئما مع الأحوال السائدة ، صالحاً لمجاراتها ، وإن لم يكن خيراً فى ذاته ، وذلك لأن الأشياء التى طال ائتلافها تتعاهد فيما بينها على البقاء مؤتلفة ، إذا صح هذا التعبير ؛ وأما الأشياء الجديدة فلا يوجد بينها مثل هذا الائتلاف ؛ فهى وإن أفادت الناس بما فيها من نفع ، تضايقهم بما يبدو عليها من عدم الانسجام ؛ وهى

(١) يصدق هذا كل الصدق على الفنون كالتصوير والنحت ، فترى النماذج الأولى فى الفنون حية ناطقة ، وكل ما تثمره الجهود التى تبذل لتقليدها هو صور منها ميتة .
المعرب

فوق هذا شبيهة بالوجوه الغريبة يدهش لها الرائى كثيراً ولا يحبها إلا قليلا .

وقد لا يكون فى هذا ضير لو أن الزمان كان جامداً لا يتحرك ، ولكن عجلة الزمان لا تنقطع قط عن الدوران ، ومن ثم كان التشبث بالقديم من العادات لا يقل عنتاً وإرهاقاً عن التجديد . والذين يبالغون فى تعظيم العهد القديم إنما يعرضون أنفسهم لسخرية الجديد . لذلك كان خيراً للناس ، إذا بدلوا وجددوا ، أن يكون لهم أسوة فى الزمان نفسه ، فهو يجدد كثيراً ، ولكنه يجدد فى سكون وبدرجات لا يكاد الناس يشعرون بها ؛ وهم لا يشعرون بالتغيير لضآلته ، ولأن الناس فى الغالب لا يتوقعون حدوث الجديد .

والجديد يصلح أشياء ويفسد أخرى ، فمن أصابه خير اطمأن به وعده من حسن حظه وتوفيقه ، وحمد من أجله زمانه ؛ ومن أصابه شر رآه ظلماً وقع عليه ولام من أجله فاعله .

ومن الخير كل الخير ألا تقدم على التجارب فى شئون الحكم وسياسة الدولة ، إلا إذا دفعتك إلى هذا ضرورة عاجلة أو فائدة محققة ؛ واحرص على أن يكون الإصلاح هو الباعث الحقيقى على التغيير لا العذر الذى ينتحل لتبرير الرغبة فيه .

وحاذر أن يكون الجديد مدعاة لارتياب الناس وسوء ظنهم حتى إذا لم يرفضوه ، واعمل بما جاء فى الكتاب المقدس « قفوا على الطريق وانظروا ، واسألوا عن السُّبُل القديمة أين هو الطريق الصالح ، وسيروا فيه تجدوا راحة لنفوسكم »[1] .

---

(١) إرميا ٦ : ١٦ وقد أوردنا النص كما هو فى الكتاب المقدس . المعرب

حماقة

بقلم

بن جنسن Ben Jonson

١٥٧٣ — ١٦٣٧

[من كبار شعراء الإنجليز ، كان معاصرا لشيكسبير ومن أصدقاء الشاعر الكبير ، وكان أصغر منه بتسع سنين . عمل فى أول حياته بناءً ، ثم جنديا وممثلا ، ولما بلغ الثالثة والعشرين بدأ يكتب الروايات التمثيلية المحتوية على كثير من الأغانى العذبة . وعين شاعرا للبلاط فى سن السادسة والأربعين ، ولكنه مات بائسا فقيرا ، ومر بقبره عابر سبيل فاستأجر عاملا بشلن ونصف كتب عليه العبارة الآتية : «ما أقل أمثالك يا بن جنسن» . وتقوم شهرة بن جنسن على مسرحياته وشعره أكثر مما تقوم على مقالاته ، وكان أعظم ما يتمناه معاصروه أن يعدوا من أتباعه] .

٢

ما أحقر الأشياء التى نعجب بها ونعظمها ؛ وما أشبهنا فى هذا بالأطفال الذين يعجبون بكل تافه حقير ، ويفضلون اللعبة تهدى إليهم عن آبائهم وأمهاتهم . وأى فرق بيننا وبينهم إلا أن حماقتنا أغلى ثمنا من حماقتهم ، وأن طيشنا أعلى درجة من طيشهم ؟ فهم يعجبون بالصَّدَفة والصفارة والدمية وأمثالها ، ونحن نعجب بالتماثيل وأعمدة الرخام التذكارية والصور والسُّقُف المذهبة من ورائها الجص والجير ، وقد لا يكون من ورائها إلا الطين .

لكننا نعجب بهذا المظهر الكاذب ، ويعظم سرورنا حين نستطيع أن نخادع به أنفسنا .

وليس هذا الخداع مقصورا على جُدرنا وسقفنا ، بل إن كل ما نسميه سعادة لا يعدو أن يكون زيفا وبهرجا كاذبا لا يقصد به إلا جمع المال . إنهم يسمون هذا شرفا ، فإذا كان كذلك فهو غشاء من الشرف رقيق يشف عما تحته . ولقد انمحت المكارم كلها من يوم أن صار المال من أسبابها ؛ وليس هذا فى الحقيقة بعجيب ؛ لكن عامة الناس ، وهم الكثرة الغالبة منهم ، وإن اختلفوا فى كل شىء ، قد اتفقوا فى شىء واحد وهو حب المال . فهم يرغبون فيه ، وهم يحرصون عليه ، وهم يعبدونه ، فى حين أن مالكه يلاقى من العناء والشقاء بعد الحصول عليه أكثر مما يلاقيه فى أثناء السعى له .

الصـــــلاة

بقلم

چرمی تیلر Jeremy Taylor

١٦١٣ — ١٦٦٧

[من كتاب المواعظ ورجال الدين العظام الذين عاشوا فى عهد تشارلس الأول وعهد الجمهورية ، وربما كان تيلر أشهرهم جميعا . وقد كتب عددا من المواعظ والمقالات الدينية ، ولكن أهم ما كتب الرسالتان الدينيتان الشهيرتان « الحياة القدسية Holy Living » و « الموت القدسى Holy Dying » وأسلوبهما سهل جيد خال من التعقيد الذى كتب به مواعظه] .

٣

لا شىء فى العالم أدل على الخطر المحدق بأرواحنا من تباطؤ الكثرة الغالبة من الناس دائما ، وتباطؤ الناس كلهم أحيانا ، عن آداء الصلاة وتأخيرها عن أوقاتها . إنهم يملون طولها ، ويسرون إذا أتوا على آخرها ، وينتحلون المعاذير للهرب منها ، كل هذا فى حين أن الصلاة ليست إلا دعاء لله أن يهبنا أعظم ما نحتاجه فى هذا العالم ، وخير ما نحتاجه ، وما يحقق سعادتنا فيه . والصلاة فى ذاتها عمل شريف هين ، والغرض الذى تؤدى من أجله نبيل . وليس فى الواجبات الدينية كلها ما هو أدل على رغبة الله فى إسداء الخير إلينا ، وامتناعنا عن قبول هذا الخير ، وعلى نعم الله علينا

وكفرنا نحن بهذه النعم ، وعلى عميم فضله علينا وعلى حماقتنا واستهتارنا بهذا الفضل ، ليس أدل على هذا كله من أن يهبنا الله هذه النعم وأن يستجيب دعاءنا ونحن نقوم بهذا الواجب المهين .

وبفضل الصلاة قد نجت المدن والممالك من الدمار ، وأحي الموتى ، وكانت النار بردا وسلاما ، وكمت أفواه الوحوش ، وغير مجرى الفلك ، وأنزل المطر فى مصر ، وانشق البحر ، وغاض الماء . والصلاة تشفى المرضى بلا دواء ، وتُكسب الدواء قوة الشفاء ، وتأتى بالمعجزات ؛ وليست الصلاة التى تفعل هذا كله إلا توجيه العقول والسمو بها نحو الخالق جل وعلا ، والرغبة فيما هو جدير أن يرغب فيه ، والتعبير عن هذه الرغبة بأيسر الوسائل وأجدرها بالإنسان . وليس القعود عن الصلاة إلا دليلا على عدم الرغبة فيما يجب أن يرغب فيه ويحرص عليه ، وقد يكون دليلا على ما هو أدهى وأمر ، وهو أن القاعد عنها يفضل خسران النعيم والسعادة عن أن يتوجه بطلبهما إلى الله عز وجل .

متاعب الرجل الشريف فى المجتمع

بقـــلم

أبرهام كولى Abraham Cowley

١٦١٨ — ١٦٦٧

[من الـكتاب الأولين بعد عودة النظام الملـكى إلى إنجلترا . درس فى جامعتى كمبردج وأكسفرد ، وكان من أشد أنصار الملـكية . وفى هـذا العهد كان النثر الإنجليزى يتطور من صورته القديمة المعقدة ، وأسلوبه المثقل بالمحسنات ، إلى صورته الحاضرة التى جعلته صالحا لأداء أغراض الحياة . وكان كولى شاعرا وناثرا ، كتب شعرا باللغتين اللاتينية والإنجليزية ، غير أن شعره لا يُعنى به كثيرا فى هـذه الأيام ، وإن كان الـكثير منه جيدا . أما مقالاته فمن النوع الجيد المطرب الخالى من التكلف والإغراب ، وقد وصفه تشارلس لام بقوله : « إنى أحب مقالاته وأفضلها حتى عن مقالات أدسن »] .

٤

إذا كان عشرون ألف أمريكى أعزل قد عجزوا عن صد هجمات عشرين أسبانيا مدججين بالسلاح ، فهل فى وسع رجل شريف واحد أن يتقى أذى عشرين ألف رجل خسيس ، مسلحين من قمة الرأس إلى أخمص القدم بسلاح الدفاع فى هذا العالم ، سلاح الذكاء والفطنة ، وسلاح الهجوم فيه وهو سلاح الحقد والختل ؟ وإذا اضطر هذا الرجل الشريف أن يكون دائم

الاتصال بالناس ، فما أشد ما يلقى من العنت منهم ؛ وليس فى وسعى لهذا السبب إلا أن أسدى إليه النصح أن يربأ بنفسه من هذه الساعة عن النزول إلى الميدان المكشوف ، بل عليه أن ينسحب منه ويسد جميع السبل على هؤلاء الأعداء الكثيرين ، ولا يدع لهم ثغرة ينفذون منها إليه . والحق أن الرجل ذا الأعمال الكثيرة إذا لم يكن غشاشا محتالا ، كان فى نظر العالم أبله ، عديم الفطنة ، واتخذه الناس سخرية لهم . ولو كان كل مايصيبه من الأذى أن يسخر الناس منه لاستطاع أن يثأرلنفسه بالسخرية منهم ؛ ولكن الأذى أشد ، لأن أولئك المتمدينين الذين يأكلون لحم إخوانهم من بنى الإنسان يفعلون ما يفعله أكلة اللحوم البشرية من المتوحشين ، فيرقصون حول فريستهم قبل أن يلتهموها . فالرجل الذى لا يتعاطى الخمر مثلا لا يسهل عليه أن ينجو من أذى السكارى ، وإن كانوا فيما بينهم ظرفاء مرحين ، فإذا ماساقته الأقدار إلى بيئتهم لقى منهم أشد الأذى ، بل تعرض للخطر الشديد . فهل تعجب بعد هذا إذا فضل الرجل الشريف الوحدة ولم يجد سبيلا للنجاة غير هذه السبيل ؟ .

وإذا ما اعتزل الإنسان الناس وهو فى وسطهم لقى من العنت أشد مما يلقاه إذا ابتعد عنهم ، فهم من حوله وحوش كاسرة ، منهم كلاب متملقة متذللة ، ومنهم آساد زائرة ، وثعالب ماكرة ، وذئاب خاطفة ، ونسور شرهة ضارية . وإنى لأعتقد أن أكثر الأمم مدنية هى أكثرها فى نظر الناس همجية ، وأن من أكلة اللحوم البشرية من لاتخلو طباعهم من الاعتدال ولين العاطفة ؛ فهم لا يأكلون إلا أعداءهم . أما نحن الأوربيين ذوى العلم والأدب فإنا كوحوش السمك نفترس كل مانستطيع أن نبتلعه .

يفخر العلم وتفخر الفلسفة بأنهما قد جمعا الناس بعد أن كانوا متفرقين ، فألفوا منهم الأمم والشعوب ، ثم شيد الناس الدور وأنشئوا المدائن . ألاليت العلم والفلسفة يستطيعان أن ينقضا ما عملا ، ويهدما ما بنيا ، لكى تعود إلينا من جديد غاباتنا وطهارتنا ، فنستبدل بها قصورنا الفخمة ومدائننا العظيمة . لسنا ننكر أن العلم والفلسفة قد حشدا مئات الآلاف من الناس فى صعيد واحد ، ولكنهما قد جمعاهم ليغش بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا . لقد كانوا قبل العلم والفلسفة يصيدون وحش الغاب ، وسمك البحر ، وطير السماء ، فأصبحوا بفضل العلم والفلسفة يصيدون إخوانهم من بنى الإنسان ؛ والعلم والفلسفة يباهيان بأنهما قد أقرا بينهم السلم ، والحقيقة أنهما قد علماهم فنون الحرب . نعم إنهما قد سنَّا لهم شرائع صالحة لكبح جماح الرذيلة ، ولكنهما هما اللذان أخرجا لهم من قبل شيطان الرذيلة ، ثم أخذا يحاولان بعد ذلك عبثاً أن يترضياه ويُقَيداه . ولست أنكر أنه لم يكن فى بداية العالم عقاب على الشر ولكن الناس فى ذلك الوقت لم يكونوا يرتكبون إلا القليل منه ، لأنهم لم يكونوا يجنون من ورائه خيرا . على أن الذين يمتدحون الفلسفة لهذا السبب مخدوعون ، لأن الفلسفة لم يكن من عملها فى يوم من الأيام أن تجمع الجماهير المشتتة ، وكل مافعلته أن نظمتها وسيطرت عليها بعد أن تجمعت ، وعلمتها كيف تجنى من الشر أحسن مايمكن أن تجنيه من الفوائد . ولقد كان الطمع وحب المال وحدهما الدعامتين اللتين شيدت عليهما المدن وقامت عليهما الدول . فماذا كان منشأ رومة حاضرة العالم القديم بأسره ؟ هل كانت أكثر من ملتقى جماعة من اللصوص وملجأ للمجرمين ؟ ألم يحم فى جوها عند بنائها اثنا عشر نسراً

كاسراً ؟ ألم يُرق بانيها على جدرانها دم أخيه ؟ ولعل هذه الخطيئة الأولى قد ارتكبت فى المدن التى قامت على وجه الأرض ولا تزال ترتكب فيها إلى اليوم ، وكلما كثر أهلها زادوا إثماً على إثمهم ، لأن كل من جاءها حمل إليها نصيبه من الداء ليزيده استفحالا حتى يستعصى على الشفاء ويصبح لا نجاة منه إلا بالخروج من حمأته . ولو أننا استطعنا أن نجد دواء شافيا لكل ماعساه أن ينشأ فى مدننا من أدواء ، ولو أننا كنا دائما مسلحين مستعدين لصد هجمات الأعداء ومقاومة الخونة المارقين ، لما أصبحت هذه الحياة المروعة مع ذلك حياة أمن واطمئنان ؛ ولكان مثلنا فى هذا كمثل آبائنا الأولين الذين كانوا يحيطون أنفسهم بالنار ليتقوا بها هجمات الوحوش ، فكان همهم على الدوام أن يراقبوا النار حتى لا يخمد أوراها ، وكانت خشيتهم من التهاون فى الحراسة كخشيتهم من حركات العدو المهاجم . كذلك ترى الرجل الفاضل معرضا لأن يطأه بأقدامهم من ليسوا على شاكلته ، وهم لعمرى كثيرون ، هذا إذا لم يصبه ماهو شر من ذلك وأعظم خطرا عليه ، وهو أن يبدلوا أخلاقه ويفسدوه . ولا سبيل له إلى النجاة من هذين الشرين إلا بالحرص الدائم والحذر الشديد . ومن شأن هذا الحرص وذلك الحذر أن يفسدا عليه راحته وهدوء باله ، أى أن يقضيا على سعادته . هذا مايخسره الرجل الشريف فى هذا المجتمع ، فانظر إذاً أى خير يصيبه منه ؟ إنه كالرجل العريان ينزل إلى الماء ليصيد السمك . إن فى وسع هذا الرجل أن يسبح فى الماء ، ولكنه عاجز عن الصيد ، بل أكبر الظن أن السمك نفسه سوف يلتهمه ، لأنه لم يعد له عدته من الشراك ومن الخداع ؛ ولهذا أعتقد

أن النصيحة التى أسداها مارشال Martial[١] إلى فابيوس Fabius[٢] حين قدم هذا إلى رومة كانت نصيحة صديق مخلص حكيم :

« أيها الرجل الشريف المسكين ، المخلص فى قوله وفى تفكيره ، أى شىء جئت به إلى هذه المدينة ؟ إنك لن تستطيع أن تكون ماجنا مهرجا ، ولا قواداً خسيسا ، ولا أن تخدع الأطهار بالألفاظ الكاذبة المعسولة ، أو تفسد الأزواج المحصَنَات ، أو تحصل بجدك وكدحك على مايقيم أودك ويحفظ عليك حياتك ، وإنك لتعجز عن أن تسلب الناس أموالهم بالوعود الكاذبة والمشروعات الزائفة الباطلة ، أو أن ترشو العظماء وتتملقهم ، بل أنت رجل عالم عادل حكيم ، ثابت قوى شجاع أمين ، إنك لن تستطيع أن تعيش فى هـذه المدينة إلا إذا ابتعدت عن الناس لتأمن شرهم وحسدهم ، نخير لك إذاً أن تعود من حيث أتيت ، وتقضى بقية أيامك حيث كنت » .

وإذا لم يصل الأمر إلى هذا الحد ، ولم يتطلب المجتمع هذا كله ، فإن منظر القذارة والدناءة مما يعافه الرجل الطاهر النقى ، ومرأى الحمق والفسوق ممـا يغضب له الرجل العاقل التقى .

ولقد دفعتنى صحبة الناس مرتين أو ثلاث مرات إلى دخول مستشفى

---

(١) ماركس فلريس مارشال Marcus Valerius Martial (٣٨ ؟ — ١٠٤ب . م) شاعر لاتينى ولد فى أسبانيا ولـكنه قضى معظم حياته فى رومه .

(٢) فابيوس : اسم لعدد كبير من القواد والساسة الرومان أبناء أسرة عريقة فى المجد من الأسر الرومانية القديمة ، عاشت فى رومة من بداية القرن الخامس قبل الميلاد ، ومنهم قاهر هنيبال القائد القرطاجى العظيم ، ولعله هو الذى يسدى إليه مارشال هـذه النصيحة وإن لم يكن معاصرا له .

الأمراض العقلية ، ورأيت ابتهاج النــاس حين يرون ما يأتيه المجانين من أعمال شاذة غريبة ؛ أما أنا فقد كان لهذه الأعمال فى نفسى أثر غير هذا ؛ كنت أعود من بينهم مكتئباً حزيناً مما أرى وأسمع ، وقد زاد عطفى عليهم بعد وجودى بينهم ، مع أنى أقابل فى طريقى آلافا من مرضى العقول من غير أن تضطرب لرؤيتهم نفسى ، وإن كنت أعتقــد أن الذين حرموا نعمة العقل كلها أقل بؤساً من الذين فسدت عقولهم وضلت سواء السبيل . وإن الذى يزن السعادة البشرية ، والثروة والشرف والجمال ، بل العقل نفسه ، بالميزان الصحيح ، ليرى أن من يسىء اســتخدام هذه النعم أحق بالرثاء ممن حرم منها .

وقصارى القول أن الرجل العاقل ، وإن استطاع أن يمضى سالماً آمناً فى سبل الحيــاة ، يلاقى على الدوام ما يثير فيه الأسى والحزن ، والخجل والغضب ، والحقد والسخط ، وغيرها من الانفعالات ما عدا الحسد (لأنه لن يجد فى العالم ما هو جدير أن يحسد) ؛ ومن أجل هذا كان من الخير له أن يعتزل الناس ويتنكب طريقهم ، حتى لا تصل إلى آذانه أنباء فعال بنى جنسه . ولــكن أين المفر ؟ أيفر إلى الصحراء كما كان يفعل النساك القدامى ؟

إنى ليخيل إلى أن النــاس كلهم قد أقسموا على ألا يتركوا شراً إلا ارتــكبوه ، وأنهم جميعاً قد باعوا أنفسهم إلى الخطيئة ، لا فرق بينهم فى هذا إلا أن بعضهم كانوا أدهى قليلا من البعض الآخر ، وأقدر على المساومة . ولقد ظننت حين ذهبت لأول مرة لأسكن الريف أنى ســأجد فيه تلك السذاجة التى يتغنى بها شعراء العصر الذهبى القديم ، وحسبت أنى لن ألقى

فيه إلا أمثال الرعاة الذين وصفهم السير فلب سيدنى[١] Sir Philip Sydney فى أركاديا Arcadia ، وأخذت أفكر فى الطريقة التى أصور بها للأجيال المقبلة ما أنا واجد فيه من السعادة والطهارة . ولكن سرعان ما خاب ظنى إذ تبينت أنى ، وإن تركت العاصمة ، ما زلت فى إنجلترا ولست فى أركاديا ، وأنى إذا كنت أبحث عن صدق القول ونقاء السريرة فإنى لن أجدهما فى الريف ، لأن الريف خال منهما خلو بلاط الملوك أو سوق المال . وإذا كانت هذه هى الحال فأين المفر وما العمل ؟ إن الدنيا لتعترض طريق الإنسان حتى لا يجد له مفراً من أن يصافحها ، فليفعل ذلك إن استطاع ، ولكن ليحذر أن يجرى وراءها ، أو أن يذل نفسه لهـا ؛ وإذا ما أوجبت عليه دواعى عمله المشروع ، أو ألزمته الضرورة ، أن يوفق بينه وبينها ، فليجعل نفسه السيد المسيطر عليها لا العبد الخاضع لها . وما أسعد من يستطيع النجاة بنفسه من هذه الغانية الغاوية المخادعة ، فلا يفر من ضجيج العاصمة وصخبها فحسب ، بل يباعد بينه وبين كل بلد كبير أو صغير .

---

(١) سير فيلب سدنى Sir Philip Sidney ١٥٥٤ — ١٥٨٦ شاعر وكاتب وجندى وسياسى إنجليزى شهير ، كان يعد فى أيامه مثلا أعلى للرجل الكامل المهذب يشتهر فى الأدب بروايته المسماة أركاديا Arcadia وهى وصف ممتع لحياة الرعاة ، وقد كتبت قبل أيامه وبعدها عدة روايات من نوعها وسميت بهذا الاسم نفسه .

متطبب دجال

بقـــلم

دانيل دفو Daniel Defoe

١٦٥٩ — ١٧٣١

[استبق أدسن واستيل فى إنشاء المجلات الدورية ، وذلك حين أصدر فى عام ١٧٠٣ (المجلة) The Review . وقد أنشئت على غرارها جريدتا المحدث والنـاظر The Tattler ، The Spectator . وقد كتب عدة نشرات سياسية ومقالات أدبية ، ولـكن أعظم ما يشتهر به هو القصص وبخاصة كتابه الذائع الصيت ربنسن كروز Robinson Crusoe ، الذى طبع فى عام ١٧١٩ ، وهو أساس الروايات الأدبية التى ظهرت فيما بعد على يدى فيلدنج ومعاصريه . ويمتاز دفو بقدرته على تصوير الحوادث الخيالية بحيث تبدو كأنها حقائق لا شك فيهـا ، كما يبدو من مقال المتطبب الدجال المنشور هنا .]

٥

مررت بالأمس مصادفة فى إحدى القرى القريبة من المدينة فشاهدت منظراً غريباً ؛ شاهدت عربة فخمة يجرها جوادان متجهة نحوى ؛ وقد استرعى نظرى ما كان يبدو على الجالس فيها من وقار وهيبة ، وعلى السائق من غيرة وحماسـة ، فأيقنت لساعتى أن الراكب فيها وزير خطير من وزراء الدولة ذاهب ليقضى فى شأن هام من شئون البلاد . ولما وصل الركب إلى وسط

القرية وقفت العربة فجأة ، ونزل من مقعدها الخلفى تابع فى ثياب جميلة مزركشة ، وسار حتى وقف أمام سيده ، ثم نفخ نفخة عالية فى بوق معه . ولشد ما دهشت حين رأيت خادما يستحيل بهذه السرعة إلى زَمَّار ، وأخذت أفكر فيما عسى أن يكون معنى هذه الظاهرة الغريبة . وبينا أنا غارق فى تفكيرى إذا بالسائق يقفز هو الآخر من مقعده ، ويضع سوطه فى مكانه على العربة ، ويخلع سترته الكبيرة ، ويستحيل فى أقل من لمح البصر إلى مهرج من الطراز الأول . وعندئذ بلغ منى العجب غايته ، وبدأت تساورنى الشكوك فيما عسى أن ينتهى إليه هذا المسخ والتحول ، وإن كان المهرج قد أخذ يلوى شدقيه ويلوح بيديه ليدخل السرور على . أما أنا فنظرت أولاً إلى الجواد ثم إلى دواليب العربة ، لأنى كنت أتوقع فى كل ساعة أن يأتى دورهما فى هذه المهزلة فينقلبا إلى أشياء أخرى لا أعرفها . وكان السيد طوال هذا الوقت قد ظل هادئا وقوراً ، ولكنه فى هذه اللحظة أخذ هو الآخر يخلع عنه هذا المظهر المخادع ، فاطرح وقاره واحتشامه ، ونفخ أوداجه ، وتكشف عن دجال وقح قد أوفى فى الدجل على غايته ، وعندئذ تبينت أنه متطبب دجال من أعظم الدجالين .

فلما تبينت هذا زاد شوقى إلى تتبع حركاته بقدر ما قلت حيرتى من أمره ، واشتدت رغبتى فى أن أستمع عن كثب إلى ما سوف يقوله الطبيب أو أن أعرف أى سر جديد فى عالم الطب قد وفق إلى الكشف عنه ، فانتقلت من مكانى وانضممت إلى من التف حوله من الجماهير . وبدأ الرجل حديثه بمقدمة صغيرة ، ثم أخذ يشرح الغرض من زيارته ويطنب فى وصف ما يكنه لأهل هذا البلد من حب خالص ، وما يمتاز به من علم وبراعة ،

ويعدد الأمراض المستعصية التي شفاها بمقدرته ، ويسهب في تحذير الناس مما يتعرضون له من خطر داهم إذا لم يستطبوا بدوائه ، ويعرض عليهم صحة الجسم وطول العمر بثمن بخس دراهم معدودة .

ولو أنك سمعت ما كان يتناثر من فم هذا الخطيب المصقع من ألفاظ سخيفة ، وتعابير عجيبة ، وتشبيهات متناقضة ، لتمزق جنباك من الإغراق في الضحك . أما أنا فقد تحيرت أول الأمر في معرفة مصدر هذا السخف الذي ألّف منه خطابه الطويل ، ولم تَزُل هذه الحيرة حتى أخبرني بعضهم أنه يعني عناية شديدة بقراءة « البريد الطيار »[1] ، وأن معظم السخف الوارد في خطابه مستمد من أقوال محررها النابه . وكنت تراه أحيانا يسف إلى أحقر العبارات العامية التي يتصورها العقل ، وأحياناً تراه ذرب اللسان واسع المجال ، لا يشق له في ميادين الفصاحة غبار . نعم إنه كان مقتصداً في العبارات اللاتينية واليونانية لأن محصوله منها — علم الله — غير موفور ، لكن الكلمات الضخمة ، والعبارات المعقدة التي لا أفهمها أنا أو أنت أو هو نفسه ، كان يتدفق سيلها الجارف من فمه تدفقاً لا يترك مجالا للشك في أنه يكرر ما حفظه من فلسفة أجريا[2] الخفية أو يقرأ محاضرة لأحد كبار الكيميائيين .

---

(١) The Flying post ودفو هنا يتهكم على عدوه جورج ردبات George Ridpath محرر هذه الجريدة . وكان دفو يراسل جريدة أخرى بهذا الاسم نفسه سماها ردبات جريدة « البريد الطيار المزورة » .The Sham Flying post

(٢) هنرى كرنليس أجريا Henry Cornellius Agrippa ١٤٨٦ من أهالي مدينة كولوني في ألمانيا اشتغل بدراسة الكيمياء الكاذبة وكتب فيها كتابه الفلسفة الخفية وغيره من الكتب . Occulta Philosophia

وبعد أن أفاض الطبيب فى ذكر الأدلة القاطعة على ما انطوى عليه قلبه من حب للإنسانية وما يمتاز به من علم غزير وبراعة منقطعة النظير — انتقل إلى الكلام على فضائل أدويته .

وهل كان فى وسع أحد من سامعيه أن ينكر عليه حبه الشديد لخير البشر ، أو علمه الغزير وبراعته المنقطعة النظير ، أو أن يصل به عدم المجاملة إلى الحد الذى يمتنع معه عن شراء دوائه ؟ ولو أن أحداً منا كان حريصاً على ماله حرص البخيل ، وتشبث به حتى فى هذه الظروف ، لكان ثمة باعث آخر قوى يتضاءل أمامه هذا الحرص ويهون فى سبيله المال ؛ فلقد أدخل الطبيب فى روعنا أن أحداً منا لا يخلو قط من جراثيم داء عضال كامنة فى جسمه مستكنة فيه ، وألا شىء فى العالم ينجينا منها إلا دواء من أدويته ؛ وأنذرنا بالموت المحقق إذا امتنعنا عن شراء دوائه ، وأكد لنا تأكيد الواثق أننا لن ننجو من الموت إذا لم نسارع إلى شرائه ، بل سنستوفى كلنا حظنا من الحياة قبل أن يحول الحول . وارتاع الناس المساكين من هول الخطر المحدق بهم ، ولكن علمهم بأن من أسهل الأشياء عليهم أن يتقوا هذا الخطر الشديد ، سرّى عنهم هذا الخوف ، ولم يتردد واحد منهم فى أن يبتاع لنفسه شيئاً من الدواء ثم أفسحوا الطريق للطبيب ليبدأ عمله من جديد .

فلما أسدل الستار على هذا المنظر بدأت الخواطر تتوارد على عقلى ، وكانت مما يبكينى تارة ويضحكنى تارة أخرى ؛ فقد كان غرور الطبيب وبلاهة مرضاه من السخف بحيث يضحكان من كان أعظم منى وقاراً ورزانة ؛ لكن المأساة التى أختتم بها هذا المنظر وما قد يكون لهذه الأدوية القتالة من سوء الأثر فى مواطنى السذج الأبرياء ، كل هذا يكفى لأن يبعث

أعظم مهرج على التفكير الجدى العميق . إننى قلما صادفت فى حياتى جماعة أنشط عقولا أو أصح أجساماً من أولئك الذين التفوا حول هذا الطبيب الجرىء ، ولقد كان يخيل إلىّ أنى أستطيع أن ألمس الصحة والقوة مجسمتين فى وجوههم الناضرة ، وأن ليس منهم واحد إلا يكاد وجهه ينطق بتكذيب دعوى الطبيب بأنه مريض . ولو أن الإنسان كان فى وسعه أن يخترق حجب المستقبل القريب ، ويشاهد ما يصيب أولئك الأقوام بعد بضعة أشهر ، لهاله الأمر ؛ فكم من شاب مفتول العضلات أراه بعين الخيال يتلوى فى ركن داره ، وكم من فتاة موردة الخدين أبصرها شاحبة هزيلة[1] .

وفى نيتى أن أزور هذا المكان مرة أخرى بعد زمن قليل لأرى بعينى ماذا كان لدواء الطبيب من أثر فى ساكنيه ؛ وسأفحص فيه عن سجلات الموتى وأقارن عدد من توفاهم الله من أهله فى كل أسبوع من الأسابيع السابقة لزيارة الطبيب بعدد من قضوا نحبهم بعد هذه الزيارة ، لأعرف من هذا الفحص عدد الضحايا الذين فتك بهم هذا السفاح فى ساعتين من الزمان . وإذا حسبت بعد ذلك عدد الدجالين فى أنحاء البلاد كلها عرفت من غير عناء عدد من تقضى هذه الطائفة على حياتهم فى كل عام ؛ وسأقدر بعد ذلك ما يصيب الدولة من خسارة بموت كل واحد من أبنائها ، فأعرف بذلك مقدار ماتتحمله البلاد من خسارة جسيمة فى الأموال ، ويتبين الشعب صدق ما أكدته من قبل ، وهو أن الأطبـاء الدجالين يعملون على إفقار الشعب أكثر مما تعمل ديون الدولة كلها مجتمعة ، وأن القضاء على هذه الطائفة هو خير طريقة لأداء هذه الديون . وسأعد الموضوع كله إعداداً وافياً

(١) لقد كان فى وسع دفو أن يعرف الشىء الكثير عن هذا الموضوع بقراءة إعلانات الدجالين التى كانت تغص بها صحيفته .

دقيقاً وأعرضه على البرلمان فى دور انعقاده المقبل . ولست أشك مطلقاً فى أن هذا المجلس الموقر سيعنى به العناية الجديرة بخطر شأنه وبما سأورده فيه من آراء صائبة وحجج قوية .

ويخيل إلى أن القضاء فى هذا البلد قد ظل يسير حتى الآن سيراً مليئاً بالمتناقضات والسخافات . نرى كثيراً من صغار الآثمين يشنقون أو ينفون من البلاد ، أما كبارهم فهم بمنجاة من العقاب ؛ فإذا اعتدى معتد على عابر سبيل فسرق ماله أو سفك دمه ، سيق أمام القضاء ، وزج فى غيابة السجن أو حكم عليه بالإعدام . أما أولئك المجرمون الذين يقتلون الناس زمراً ، ولا ينهبون مال الأفراد والجماعات فحسب ، بل ينهبون أيضا خزانة الدولة ويفقرونها ، فلا يسألون عما يفعلون . بحقك يا رئيس التحرير هل كانت المشانق وكان الجلادون لغير هؤلاء ؟

ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى ذلك الطبيب . لقد دعانى حب الاستطلاع إلى فحص بعض أدويته فى أحد المعامل ، فحللتها إلى موادها البسيطة تحليلا كيميائيا ، وكانت نتيجة هذا التحليل أن عرفت أن فى كل واحد منها مقدارا كبيرا من المواد السامة النباتية أو المعدنية ، فليس منها ما يخلو من الزرنيخ والزئبق والنباتات السامة ، لأنه ليس فى مقدوره أن يصنع شيئا ذا أثر فى أجسام الناس إلا من أمثال هذه المواد . وهو يطلق على هذه المركبات أسماء مختلفة حسب الصورة التى تكون عليها ، فيسميها حبوبا أو أقراصا أو معاجين أو غيرها من الأسماء .

فأما حبوبه فإنى أوصى باستعمالها بدل حبال المشانق ؛ فإذا كان إنسان قد مل هذه الحياة التعسة ، وأراد أن يستبدل بها حياة غيرها خيراً منها ، ولكنه يستنكف أن يتخلص منها بتلك الطريقة العتيقة التى يسونها شنقاً ،

فإن فى وسعه أن يصل إلى غرضه بطريقة أظرف وأضمن ، وذلك بأن يبتلع بعض هذه الحبوب العجيبة . وأما أقراصه فلا يعلو عليها شيء من نوعها ؛ ولقد جربتها فى عدد من الحيوانات فما وجدت أحسن منها لتسميمها . ذلك أن مقداراً متوسطا منها قد أسكت فى لمح البصر كلبا نباحا اعتاد أن يقلق راحتى فى الصباح الباكر ، كما أن مقداراً آخر مثله قد هَدَّأ من ثائرة طائفة أخرى من الكلاب الصغيرة كانت كثيرة العواء فى الحى الذى أسكن فيه . وإذا كانت الجرذان تضايقك فإن معجون الطبيب علاج ناجح لا يخيب قط ؛ وقد جربت ذلك بنفسى فطهرت بيتى من هذه الحيوانات المؤذية بوضع مقادير صغيرة منه فى الأماكن التى تتردد عليها . وإنى أوصيك يا سيدى[1] باستعماله كما أوصى به جميع قراء جريدتك ، وأؤكد لهم أنه أقوى سم للجرذان فى العالم .

ولا حاجة بى بعد هذا لأن أعدد جميع فضائل أدوية الطبيب الأخرى ، ولكن فى وسعى أن أؤكد للقراء أن ما جاء فى الخرافة القديمة العجيبة الخاصة بصندوق بندورا Pandora [2] يصدق بنصه على دواء الطبيب ، ففى هذا الدواء أصول الأمراض كلها بلا استثناء .

وقبل أن أختم هذا المقال أعتذر إليك يا سيدى الرئيس أن كنت جادا فى الكتابة فى هذا الموضوع الهزلى ، وأن قد أكثرت من الكلام على هذا الدجال الجاهل السخيف .

---

(١) رئيس تحرير الجريدة .

(٢) بندورا امرأة جميلة تذكر الأساطير اليونانية أن چپتر Jupiter أعطاها صندوقا يحتوى جميع الأمراض والشرور التى تصيب الإنسان ، فلما فتح هذا الصندوق انتشر ما كان فيه فى العالم كله ، وكان ذلك من چپتر انتقاما من پروميثيوس Prometheus حين سرق النار المقدسة من السماء .

خواطر سانحة عن يد مكنسة

بقـــلم

چُـنَاثان سوفت Jonathan Swift

١٦٦٧ — ١٧٤٥

[من أشهر الـكتاب فى أوائل القرن الثامن عشر ، نشأ فقيرا ورُسم قسيساً ، ولـكنه لم ينل فى عمله هذا ما كان يؤمله من الرق ؛ وأثر فى نفسه خيبة آماله واعتلال صحته فحقد على العالم ، وجن فى آخر أيامه جنونا دام خمس سنين وانتهى بموته . وقد برع سوفت فى الهجاء ، ومن أشهر ما كتبه فيـه « رحلات جلفر Gulliver's Travels » وهى نقد لاذع وهجاء شديد للحالة السياسية والاجتماعية السائدة فى عصره . وله أيضا عدة رسائل فى تأييد المحافظين وهجاء الأحرار ، هذا عدا مقالاته . وأسلوبه قوى موجز خال من المحسِّنات اللفظية ، ولـكن كتاباته يفسدها كلها حقده وغضبه الشديد ، واستهتاره بالقوانين الأخلاقية .

ولسوفت أيضا عدد قليـل من القصائد ، ولـكنها ليست من الطراز الأول] .

٦

إن العصا التى تراها الآن منزوية مهملة فى ركن من أركان هذه الحجرة كانت من قبل شجرة مخضرة فى غابة كبيرة ، تجرى فيها العصارة الحية ، وتزينها الأوراق والغصون ؛ والآن يحاول الإنسان بفنه أن ينافس الطبيعة ،

فيشد إلى العصا الجافة الميتة حزمة أخرى من العساليج الذابلة .

ومهما فعلت بها فليس فى وسعك أن تقول عنها أكثر من أنها شجرة مقلوبة ، فرعها فى الأرض وأصلها فى الهواء ، تتلقفها كل خادمة قذرة لتؤدى بها أشق الأعمال . ولقد شاءت الأقدار الساخرة أن يكون جزاؤها عن تنظيف غيرها أن تصبح هى نفسها قذرة ؛ وإذا بليت عساليجها فى هذا العمل المهين ولم تعد صالحة له ، أُلقيت من النافذة فى الطريق ، أو استُخدمت فيما هو شر من هذا وهو إيقاد النار .

رأيت هذه العصا وفكرت فى أمرها فآلمنى هذا التفكير ، وقلت فى نفسى « ما أشبه الإنسان بيد مكنسة » . لقد جاء إلى هذا العالم قوى الجسم، شديد البأس ، ممتلئاً بماء الحياة ، يظلل الشَّعر رأسه كما تظلل الغصون الشجرة ، ثم أسرف على نفسه فتساقطت أغصانه وتركته جذعاً ذابلاً خاوياً .

وعندئذ عمد إلى الفن والصناعة ليصلح ما أفسد الدهر ، يلجأ إلى المساحيق والأصباغ ، أو الشعر المستعار الذى لم ينبت يوماً ما على رأسه . ألا ما أظلم الإنسان وما أبعده عن العدل والنزاهة ! لو أن هذه العصا قد جاءته تزهو بهذه العساليج المستعارة ، وبالتراب الذى تراكم عليها من حجرة أجمل سيدة فى المدينة ، لسخر منها وازدراها لزهوها وخيلائها ، لكنه يغمض عينه عما يفعل بنفسه . إن الإنسان لظلوم ، يرى عيوب الناس ولكنه لا يرى إلا محاسنه .

ولقد يقول قائل : إن يد المكنسة رمز لشجرة وقفت على رأسها . وهل الإنسان إلا مخلوق ركب رأسه ، وأكبَّ على وجهه ، وغلبت شهواته الحيوانية على عقله الروحانى ، ووضع رأسه فى موضع قدميه ، يدب على

الأرض دبيب الدود ، ويدعى — على ما به من عيوب — أنه المصلح الأعظم ، مُطهر الأرض من المظالم والشرور ، فتراه ينقب الآفاق ليكشف عما خفى فيها من العيوب ، ويثير الغبار فى الجو الصافى ، وهو مع ذلك ملوث بالأقذار التى يدعى أنه يعمل لإزالتها . أما آخر أيامه فيقضيها عبداً ذليلاً ، خاضعاً للنساء ، ولأقل النساء جدارة بالسيطرة على الرجال ، حتى إذا بلى جسمه ، كما تبلى عساليج المكنسة ، أُلقى فى الطريق أو استخدم فى أحقر الأغراض .

على فراش الموت

بقـــلم

سير رتشرد استيل Sir Richard Steele

١٦٧٢ — ١٧٢٩

[ولد فى دبلن عاصمة إيرلنده ، وتخرج فى جامعة أكسفرد . وفى معاهد التعليم توثقت روابط الصداقة بينه وبين زميله أدسن ، وهى الصداقة التى دامت طوال حياتهما ، وأثمرت خير الثمار الأدبية . وأول ما كتب قصيدة يرثى بها الملكة ميرى ، وله أربع مسرحيات تسرى فيها كلها الروح الدينية ، والتفانى فى أداء الواجب . وهو أول من ابتدع المقالات الدورية فى جريدته التى سماها المُحَدِّث The Tattler ثم فى جريدتى الناظر The Spectator والحارس The Guardian وعدة جرائد أخرى . وكان يعاونه فيها كلهـا زميله أدسن . وانتخب استيل عضواً فى البرلمان لـكن لهجته الحادة أغضبت حزب المحافظين فأخرج منه . ولما عاد حزب الأحرار إلى تولى زمام السلطة عُين فى عدة مناصب كبيرة ومنح لقب فارس .

ويرجع إليه هو وزميله أدسن الفضل فيما بلغته المقالة الأدبية الدورية من كمال لم ترق إليه قبلهما ولم تتجاوزه بعدهما . ومن ذلك الحين أصبح هذا النوع من الأدب محبباً إلى القراء منتشراً بينهم ، ولا يزال كذلك حتى الآن] .

٧

كنت فى صباح اليوم أتمشى فى حجرتى وأنا منشرح الصدر مستبشر ، وإذا بعربة تقف عند باب الدار وينزل منها شاب فى الخامسة عشرة من عمره ، نظرت إليه فعرفته أكبر أبناء صديق لى حميم ، هو الذى تحدثت عنه فى أعداد هذه المجلة . ولقد سررت لرؤية هذا الشاب ، لأن صداقتى لوالده بدأت عند ما كان شبيهاً به وفى مثل سنه . وأقبل الشاب علىّ وأمسك بيدى وأخذ يبكى وينتحب . وأثر فىّ هذا المنظر وآلم قلبى فسألته من فورى : « كيف حال أبيك يا ولدى ؟ » . وهم الشاب أن يجيبنى ولكنه لم يزد على قوله « أمى . . . » وخنقته العبرات فعقدت لسانه ، ونزلت معه إلى حيث كانت العربة ، وعلمت منه بعد مشقة أن أمه تحتضر ، وأنه ترك القسيس إلى جوارها ، وجاءنى ليدعونى للذهاب إلى والده ، لأنه يخشى أن يقضى هو الآخر نحبه إذا لم أسرع إليه لأشاركه فيما دهمه . ولقد كان من شأن حصافة هذا الشاب الذى هداه عقله إلى المجىء إلىّ من نفسه ، وما أظهره نحو أبويه من عطف وحنان ، أن يغلبانى على أمرى لولا أننى غالبت شعورى واستبقيت قوتى لأؤدى بها ما يجب على لصديق . ولم يسعنى وأنا بجانب الشاب فى طريقنا إلى داره إلا أن أفكر فى أخلاق هذه السيدة الصالحة المحتضرة ، وفى هول الكارثة التى ستحل بزوجها حين يفقد من كانت عوناً له على الدهر ونوائبه ، ولم أدر هل فى مقدور الرجل أن يتحمل الصدمة التى لا بد أن يقاسيها عند وفاة الزوجة وهو الذى لم يستطع حين زرته فى المرة الأخيرة أن يتحدث عن مرض أصابها من قبل دون حزن وجزع ؟

ووقفت بنا العربة عند الدار ، وكان أول من رأيت على بابها القسيس ،

وقد جاء ليكون إلى جانب الزوجة فى ساعتها الأخيرة . وكنت قد تحدثت من قبل إلى هذا الرجل فأعجبنى منه فضله وعلمه اللذان يحببان الإنسان فى الدين ، واتفق أن كان حديثنا فى تلك المرة عن الموت ، فأفاض علينا من علمه ما أذهب خوفنا منه ، وجعله فى نظرنا ونظر سائر المثقفين أمراً لا أهمية له قط ، وإن شئت فقل مرغوباً فيه . ولما قابلته عند باب الدار رأيت وجهه يتلألأ تلألؤ الحزن والرحمة معاً ، وينم عن صبر وعزيمة بلغا من القوة مبلغاً خفف كما علمت بعض آلام الميتة ، ولوعة من كان حولها من أصدقائها المقربين . وذهبت من فورى إلى الغرفة وقابلنى عند بابها صديقى ، وكان قبل مجيئى قد هدأ روعه قليلا ، ولكنه حين رآنى حول وجهه عنى وأجهش بالبكاء والعويل . وأثر هذا المنظر فى أطفال الأسرة فبدت عليهم علائم الحزن كل منهم بما يناسب سنه وقوة إدراكه . فأما البنت الكبرى فقد فاضت عيناها بالدمع ولكنها لم تنقطع عن العناية بشئون أمها ، وأما سائر الأطفال فقد رأيتهم راكعين حول فراش الأم المحتضرة وكان أشد ما أمضنى وأحزن قلبى منظر ولد صغير لا يعرف للبكاء سبباً ، ولكنه كان يبكى لأن أخواته كن يبكين . ولم يكن فى الحجرة كلها أهدأ بالاً أو أكثر استسلاماً للقضاء من السيدة المحتضرة نفسها . ولما اقتربْتُ من فراشها قالت لى بصوت خافت متقطع : « هذا فضل منك ، أوصيك خيراً بصديقك ، لا تفارقه » . وكانت قبل مجيئى قد ودعت زوجها وأطفالها الوداع الذى يليق بهذا الفراق الأبدى وبسيدة فى مثل عقلها وأخلاقها .

وتقطعت نياط قلبى عند ما رأيت الزوج واقفاً إلى جانبها يغالب الحزن خشية أن يزيد من آلامها فى الساعات الأخيرة ، والزوجة فى هذه اللحظة

تحاول أن تخفى آلامها المبرحة لـكيلا تزيد من ألم زوجها وكربه . وظلت عيناها تنظران إليه لحظات قليلة بعد أن انعقد لسانها عن النطق ، ثم أطبقت جفنيها وأسلمت روحها إلى بارئها . وعندئذ لم يحتمل صديقى هول الـكارثة فصرخ صرخة عالية ، وخر إلى جانب فراشها مغشياً عليه[١] .

وكان الرعب الذى تملك الأطفال حين ظنوا أن الموت قد اختطف أبويهم فى لحظة واحدة مما يذيب أقسى القلوب ؛ لـكنهم لم يلبثوا أن رأوا أباهم تعود إليه الحياة بعد أن نقلناه إلى حجرة ثانية ، واعتزمت أن أبقى إلى جانبه حتى تخف عنه حدة الفجيعة ؛ وكنت أعرف عبث العزاء والمواساة بالألفاظ فى مثل هذه الساعة ، ولذلك قنعت بالجلوس إلى جانبه ومشاطرته النكبة فى سكون مؤتسياً فى ذلك بما جاء فى رسالة لـكاتب قديم « سأحتفظ بنصيحتى إلى أعز أصدقائى حتى تتهيأ نفسه لقبولها بفعل عوامل ثلاثة أراها خير أنواع العلاج فى مثل هذه الأحوال ، وتلك هى مر الزمان ، والاستسلام لحـكم القضاء ، وامتلاء القلب بالأحزان »[٢] .

وإنى ليؤلمنى أشد الألم أن أفـكر فى حال هذا الرجل الذى انتزع منه جزء من نفسه يفتقده فى كل ساعة من ساعات حياته فلا يجده ؛ وما أشبهه فى هذه الحال برجل قطعت منه ذراعه اليمنى ، ولـكنه يهم فى كل لحظة أن يمدها لقضاء شئونه بها . فهو فى بيته ، وأمام مائدته ، وفى عزلته ، وفى صحبته الناس ، لا يحس بأنه كما كان من قبل ؛ وهو لا يستمتع بالملذات والمسرات

(١) إلى هنا ينتهى ما كتبه استيل من هذا المقـال ، وأما الباق منه فقد كتبه زميله أدسن .

(٢) الفيلسوف سنكا Senecca .

التى كان يحببها إلى قلبه اشترا كها فيها معه ؛ وإذا رأى أحب الأشياء إليه ذ كر من كانت تشاركه فيها . ولقد أجاد الشاعر العظيم « مِلْـتن » وصف هذا الشعور ، شعور اللذة المضاعفة بما نستمتع به فى صحبة من نحب ، وذلك عند ما صور حواء فى الجنة عاجزة عن أن تستمتع بما حولها من جمال حين لا يكون آدم إلى جانبها يشترك معها فيه فيزيده بهجة ويزيدها غبطة .

جبل المصائب

بقـــلم

جوزف أدسن Joseph Addison

١٧١٩ — ١٦٧٢

[كان أبوه وجده قسيسين ، وكانت دراسته أكثر انتظاما من دراسة زميله استيل . وتخرج فى كلية الملكة Queen's College بأكسفرد فى سن الخامسة عشرة ، وكتب وهو طالب شعراً بالإنجليزية واللاتينية ، ودرس شعراء الرومان الأقدمين دراسة عميقة ، وكانت الصحافة وقتئذ قد أصبحت أداة عظيمة الأثر فى الرأى العام ، وكان زعماء حزب الأحرار قد شرعوا يستخدمون الشبان ذوى المواهب الأدبية فى المناصب العامة ، وتكشفت لهم مواهب أدسن الأدبية فرتبوا له معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه ليعد نفسه للحياة العامة ، فسافر إلى أوربا وأقام فترة من الزمن فى فرنسا ، ثم انتقل منها إلى إيطاليا وألمانيا وهولندة ، وعاد إلى إنجلترا فى عام ١٧٠٣ ، وكتب قصيدة شعرية ، وقصة عن رحلته ، ومسرحية غنائية ، وبعض مسرحيات ، أحسنها كلها مأساة كيتو Cato ، ولكن شهرته تقوم على مقالاته الأدبية التى كان يكتبها فى جرائد المحدث والناظر والحارس « The Guardian » ، « The Spectator » ، « The Tattler » .

ولما حانت ساعة وفاة أدسن أرسل إلى ربيبه لورد وروك Warwick

وقال له : « لقد أرسلت إليك لترى كيف يموت المسيحى المؤمن » ودفن فى مقبرة العظماء فى وستمنستر .

وكثيراً ما يوازن الأدباء الإنجليز بين أسلوبى أدسن وأستيل ؛ وهم مجمعون على أن أسلوب أدسن أسلس وأصح ، وأنه هو أكثر من صاحبه عناية بالأمور الدينية ، والموضوعات الأخلاقية ، لكن أستيل أكثر من صاحبه علماً بشئون الناس على اختلاف طبقاتهم] .

٨

من حكم سقراط المأثورة أن مصائب الناس كلهم إذا جمعت ثم وزعت بينهم بالتساوى لرأى الذين يظنون أنفسهم أبأس خلق الله جميعاً أن مايعانونه الآن منها أقل مما يصيبهم بعد هذا التقسيم الجديد .

ولقد جلست يوما فى حجرتى على مقعد ذى متكأ أفكر فى هذا الموضوع ، فأخذتنى سنة من النوم ، وخيل إلىّ فجأة أن جيتر رب الأرباب قد أذن فى الناس أن يحمل كل واحد منهم أحزانه ومصائبه ، ويلقى بها على كومة عنده ليستبدل بها فيما بعد مصيبة غيره . وأعدت ساحة من الأرض متسعة ليلقى فيها كل واحد مصيبته ، واتَّخَذْتُ مكانى فى وسطها . ولشد ما سررت عند ما رأيت الناس جميعاً مقبلين بعضهم فى إثر بعض ، ورأيت كلا منهم يلقى حمله ، حتى تجمع من المصائب كلها فى وقت قصير جبل شامخ علت رؤوسه فوق السحب .

وكان ممن رأيت سيدة نحيفة جمة النشاط ، تمسك بإحدى يديها مجهراً زجاجياً ، وترتدى ثوباً فضفاضاً مهفهفاً ، طرزت عليه عدة صور من الأشباح والشياطين ، إذا هبت عليها الريح تشكلت بآلاف من الأشكال الغريبة

المختلفة . وكان فى نظراتها شىء من الاضطراب والقلق ، وسألت عن اسمها فقيل إنه « الوهم » . وكانت تقود كل شخص إلى مكانه الذى أعد له بعد أن تساعده على حزم مصيبته ووضعها على كتفيه . وكاد قلبى يذوب أسى عند ما رأيت بنى جنسى يرزحون تحت أعباء ما يحملونه من البلايا ، وشاهدت ما تراكم أمامى منها .

لكننى رأيت أيضاً عدداً من الأشخاص كانوا موضع تسلية لى . فقد شاهدت واحداً من هؤلاء يعنى أشد العناية بإخفاء حزمة تحت ثوب مزركش ، فلما ألقاها على الكومة تبينت أنها الفقر ، ورأيت آخر يلهث من التعب ثم يلقى حمله عن عاتقه فإذا به زوجته .

وكان بينهم عدد كبير من العشاق ينوءون بأحمال غريبة من السهام واللهيب ؛ وأغرب ما رأيته من أمر هؤلاء أنهم ، وإن كانوا يتحسرون حتى لتكاد نياط قلوبهم تتقطع من ثقل ما يحملون ، إذا وصلوا إلى الكومة لا تطاوعهم نفوسهم بإلقاء مصائبهم عليها ، فقد كانوا يبذلون بعض الجهود الضئيلة لإلقائها عن عاتقهم ، ثم يهزون رؤوسهم ويعودون أدراجهم مثقلين بها كما كانوا من قبل . ورأيت جماعة كبيرة من العجائز يلقين غضون وجوههن ، وعددا من الفتيات يتخلصن من بشرتهن السمراء ، ورأيت أكواماً عالية من الأنوف الحمراء ، والشفاه الغليظة ، والأسنان الصدئة . والحق أنى دهشت حين رأيت أن الجزء الأكبر من الجبل قد تكون من العيوب الجسمية دون غيرها . وقد رأيت فيمن رأيت شخصاً مقبلا نحو الجبل يحمل بضاعة أكبر كثيراً مما يحمله غيره ، فلما اقترب منى وجدتها حدبة طبيعية ، وألقاها عن كاهله فوق كومة البلايا البشرية .

وهو فرح مغتبط . وكان مما شاهدته أيضاً أنواع لا تحصى من العلل والأسقام وإن كنت قد تبينت أن كثيراً منها أسقام وهمية . ولفت نظرى بنوع خاص حزمة صغيرة مكونة من خليط من جميع الأوجاع التى تصيب الطبيعة البشرية ، يمسك بها عدد كبير من علية القوم ويطلقون عليها اسم الحقد. على أن الذى أثار عجبى أكثر من كل ما سبق أن أحداً من الناس لم يلق برذيلة خلقية أو سخافة عقلية واحدة فى هذه الكومة كلها . وقد كنت أعتقد أن كل إنسان سيغتنم هذه الفرصة المواتية ليتخلص من غيظه وحنقه وتحامله ونقصه ، وأسباب ضعفه الخلق .

واسترعى نظرى بنوع خاص شخص رقيع مستهتر ، لم أشك فى أنه جاء مثقلا بجرائمه ، فلما فحصت عن حزمته عرفت أنه لم يلق عنه جرائمه بل ألقى ذاكرته ، ثم جاء بعده رجل حقير وضيع ألقى عن كتفه تواضعه بدل أن يلقى جهله .

ولما ألقى جميع الناس أحمالهم ، ورأى الوهم الذى كان طوال الوقت مجداً فى عمله أنى لم أحرك ساكناً بل اكتفيت بالنظر والتأمل اقترب منى . فلما أقبل بدا علىّ بعض الاضطراب ، ولكنه وضع مجهره أمام عينى ، ولم أكد أبصر فيه صورة وجهى حتى راعنى قصره المتناهى الذى بدا لى وقتئذ فى أبشع صورة . وكان مما ساءنى فيه الزيادة المفرطة فى عرض ملامحى ، فألقيته عنى كما يلقى القناع . واتفق لحسن حظى أن كان إلى جانبى شخص ألقى عنه وجهه منذ لحظات قليلة لأنه رآه مفرطاً فى الطول . والحق أن وجهه هذا قد بلغ من الطول حداً يخجل منه صاحبه ، فقد كان ذقنه وحده أطول من وجهى كله وبذلك أتيحت لنا نحن الاثنين فيما بعد فرصة ثمينة لإصلاح حالنا.

وسرنى كل السرور أن أرى النـاس كلهم قد تخلصوا من أحزانهم وآلامهم ، وإن كنا فى الوقت نفسه قد تبينا ونحن واقفون حول الـكومة نتأمل المواد المختلفة التى تتألف منها أنه لايكاد يوجد إنسان فى الجمع الحاشد من حولها إلا رأى فيها ما يعتقد أنه من نعم الحياة وملاذها ، وعجب من أصحابها كيف يعتقدون أنها من أسباب بلاياهم وأحزانهم .

وبينا نحن نُنعم النظر فى هذا الخليط من البلايا ، وهذه الفوضى من المصائب ، إذا بجپتر يصدر أمراً ثانياً يبيح فيه إلى كل إنسان أن يستبدل بمصيبته مصيبة سواه ، وأن يعود إلى داره بما يقع عليه اختياره من الـكومة التى أمامه .

وحسبى أن أنقل إلى جمهور القراء بعض ما استرعى نظرى فى ذلك الوقت . لقد رأيت رجلا أشيب الشعر طاعناً فى السن ، يشكو المغص ويريد وارثاً لثروته الـكبيرة ، يلقى عنه مغصه ويختطف ابناً عاقا ألقاه أبوه على الـكومة وهو غاضب عليه ، ولم يمض على اختطافه ربع ساعة حتى أمسك الولد بلحية الرجل المسن وكاد يهشم رأسـه ، فلما قابل الرجلُ والدَ هذا الفتى توسل إليه أن يأخذ منه ولده ويرد إليه مغصه ، ولـكن أحدهما لم يكن فى مقدوره أن يرد إلى الآخر ما أخذه باختياره . ورأيت أيضاً عبداً مقيداً بالسلاسل وقد ألقى عنه أغلاله واستبدل بها آلام المفاصل ، ولـكنه ماكاد يبرح مكانه حتى أخذ يُلَـوِّى وجهه ويقطب جبينه ، وكان فى وسع كل من رآه أن يدرك لساعته أنه لم يكن الرابح فى هذه الصفقة . وكان من الطريف أن أرى الصفقات التى تمت واستبدل فيها المرض بالفقر والجوع بالجشع والقلق بالألم .

وانهمكت النساء فيما بينهن فى استبدال معارفهن ، فقد رأيت واحدة منهن استبدلت بظهرها الأحدب خصلة من الشعر الأشيب ، وشاهدت أخرى تستعيض عن وسطها القصير بكتفين مستديرتين ، ولكننى لم أر واحدة منهن إلا وقد وجدت أن العيب الجديد شر من عيبها القديم . ولم يكن هـذا خاصاً بالنساء وحدهن ، بل إن كل إنسان فى هذا الجمع الحاشد تبين بعد قليل أن الكارثة التى اختارها لنفسه أَشد وقعاً عليـه من كارثته الأولى التى أراد أن يتخلص منها . ولعل منشأ هذا أن الكوارث التى تنزل بنا تلائم قوانا وتتناسب معها ، أو لعلنا وقد ألفنا ما يحل بنا من الكوارث أصبحنا أقدر على تحملها والصبر عليها . ذلك ما لا أستطيع أن أقطع فيه برأى .

ولست أريد أن أغفل نصيبى الخاص فى هذه المجازفة الخطيرة ، فلم يكد صديقى ذو الوجه الطويل يستبدل به وجهى حتى بدا شخصاً غريباً مضحكا ، لم أتمالك حين رأيته أن أضحك من نفسى ضحكا توارى منه وجهى خجلا . وآلمت هذه السخريةُ الرجل المسكين فاستحى مما فعل . أما أنا فلم أجد أنى ظفرت بشىء كثير ، ذلك أنى أحببت أن ألمس بيدى جبهتى فأخطأت مكانها ووقعت يدى على شفتى العليا . كذلك كان أنفى شديد البروز فلطمته بيدى لطمتين أو ثلاثاً حين أردت أن أضعها على مكان آخر من وجهى . ورأيت إلى جانبى رجلين آخرين لم تكن حالهما بأحسن من حالى ، فقد استبدل كلاهما بساقيه الغليظتين ساقين أخريين نحيلتين كالعصوين ؛ وبدا أحدهما كأنه يسير على مشاءتين ، فقد استطال فى الهواء أكثر من طوله الطبيعى حتى كان رأسه يدور كلما هبت عليه الريح . وأما الثانى فكان إذا

أراد المشى دار حول نفسه دورات سمجة مضحكة حتى بدا وكأنه لا يعرف كيف يسير إلى الأمام على ساقيه الجديدتين . ورأيته رجلا ظريفاً فوضعت عصاى فى الأرض على بعد منه قليل وأخبرته أنى أراهنه بزجاجة من النبيذ على أنه لايستطيع أن يبلغها فى ربع ساعة مع أنى رسمت له على الأرض خطا مستقيما يسير عليه .

ووزعت الحكومة آخر الأمر بين الرجال والنساء ، فكان منظرهم كلهم وهم يسيرون مثقلين بأعبائهم الجديدة مما يدعو إلى الأسى والرحمة ؛ وضج السهل كله بأصوات الشكوى والتذمر والألم والأسف ، وأخذت چپتر الرأفة بهؤلاء الأناسى المساكين فأذن فيهم مرة أخرى أن ألقوا عنكم أحمالكم وليأخذ كل منكم حظه الأول . ولم يكد هذا الأمر يصدر إليهم حتى هرولوا إلى الحكومة يلقون عليها أحمالهم الجديدة ووجوههم تتهلل بشراً . وأمر الشبح الذى أضلهم هذا الضلال البعيد أن يختفى عن الأنظار ، وجاءت بدله إلـهة لا وجه للشبه بينها وبينه ، كانت خطواتها ثابتة ، ونظراتها حادة مبتهجة ، وكانت ترفع وجهها إلى السماء بين الفينة والفينة ، وتنظر إلى وجه چپتر ، وعرفت أن اسمها الصبر . ولم تكد تقف بجوار جبل المصائب حتى صغر حجمه فلم يزد على ثلث ما كان عليه من قبل ، ثم أعادت إلى كل إنسان مصيبته الأولى ، وعلمته كيف يحملها على أحسن وجه يستطيع ، فحملها وسار بها راضياً يحمد ربه على أنه لم يُترك وشأنه ليختار لنفسه الشر الذى يريده .

ذلك هو الحلم الذى رأيت ، وهو يهذب الأخلاق من عدة وجوه ؛

وكان مما أفدته أنا منه ألا أحزن على ما يصيبنى من الآلام ، أو أحسد غيرى على ما يناله من أسباب السعادة ، لأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يحكم حكماً صحيحاً على آلام جاره ؛ ولهـذا السبب عينه قررت ألا أستخف بشكايات غيرى ، وأن أنظر إلى مصائب بنى جنسى نظرة عطف عليهم ورحمة بهم .

رؤيا مرزا

بقلم

چوزف أدسن

٩

وقعت فى يدى حين كنت فى مدينة القاهرة الكبرى عدة مخطوطات شرقية لا أزال أحتفظ بها إلى الآن ، ومن بين هذه المخطوطات مخطوط كتب عليه « رؤى مرزا » ، قرأته من أوله إلى آخره بشغف عظيم ، وسأعرض بعض فصوله على القراء حين لا أجد لدى ما أسليهم به غيرها ، وسأبدأ بعرض الرؤيا الأولى مترجمة ترجمة حرفية فيما يلى :

« فى اليوم الخامس من الشهر القمرى ، وهو اليوم الذى اعتدت أن أعظمه جريا على سنة آبائى ، توضأت وصليت الفجر ، ثم صعدت تلال بغداد العالية لأقضى بقية اليوم فى العزلة والعبادة . ووقفت على قمة الجبل أستنشق الهواء النقى ، وأفكر فى قيمة الحياة البشرية وما تنطوى عليه من زهو وغرور ، وتتابعت الأفكار فى ذهنى فقلت فى نفسى إن الإنسان خيال والحياة حلم . وبينا كانت هذه الأفكار تطوف بعقلى نظرت بعينى إلى صخرة عالية قريبة منى ، فرأيت عليها شبحاً فى ملابس راع بيده آلة موسيقية غريبة . ولما وقعت عينى عليه وضع الآلة فى فمه وأخذ ينفخ فيها ، فسمعت لها أصواتا عذبة مختلفة النغمات لم أسمع مثلها من قبل . وقد أذكرتنى حين سمعتها بالنغمات التى تطرب بها أرواح الصالحين أول ما يدخلون الجنة لتمحو من

نفوسهم ما لاقت من الآلام وتهيئهم للاستمتاع بالنعيم فى الدار الآخـرة . وكاد قلبى يذوب من شدة الطرب حين سمعت هذه الأصوات .

«وكان قد ترامى إلىّ أن هذه الصخرة مأوى جنى ، وأن كثيرين ممن مروا بها سمعوا هـذه النغمات العذبة ، وإن كان أحد منهم لم ير صاحبها رأى العين . ولما هيج الجنى أفكارى بهذه النغمات الحلوة ، وشوقنى إلى سماع حديثه ، ورآنى أنظر إليه فى حيرة ودهشة ، أشار إلى بيده أن أقترب من المكان الذى يجلس فيه . فأطعت وأنا أظهر له من الإجـلال ما يليق بأمثاله من الخلائق العليا . وكانت النغمات الساحرة التى سمعتها قد أثرت فى ، فركعت بين يديه وأخذت أبـكى من شدة التأثر ، فتبسم وأظهر من البشاشة والرأفة ما أزال دهشتى وبدد الخـوف الذى كان يلازمنى وأنا أقترب من مجلسه . ثم رفعنى عن الأرض وأمسـك بيدى وقال لى : « لقد سمعت يا مرزا حديثك لنفسك فاتبعنى » .

« وقادنى الجنى إلى أعلى قمم الصخرة ، وأمرنى أن أقف عليها وأنظر نحو الشرق وأحدثه عما أرى ، فقلت له إنى أرى واديا عظيما ، وأرى سيلا جارفا من الماء يتدفق فيه ، فقال : « إن الوادى الذى تراه هو وادى الشقاء ، وإن التيار الذى يجرى فيه هو تيـار الأبدية العظيم » . وسألته : « لم يبدأ التيار من ضباب كثيف فى إحدى الناحيتين ، ثم يختفى فى ضباب كثيف مثله فى الناحية الأخرى ؟ » فأجابنى : «إن الذى تراه هو ذلك الجزء من الأبدية الذى يسمونه الزمان ، والذى يقاس بحركة الشمس ، ويمتد من بداية العالم إلى نهايته . ولـكن انظر إلى هذا البحر الذى يحدده الظلام من جانبيه ، وحدثنى عما تستطيع أن تراه » فقلت له : « إنى أرى جسرا قائما فى وسط

المجرى» فأجاب: « وهذا الجسر هو الحياة البشرية فانظر إليه بإمعان» فنظرت إليه على مهل فوجدته يتألف من سبعين عقدا صحيحا ، ومن عدد آخر من العقود المحطمة ، إذا أضيفت إلى العقود السابقة بلغ عددها مائة أو نحوها . وبينما أنا أحصى العقود قال لى الجنى إن الجسر كان فى أول الأمر يتألف من ألف عقد ، ولكن فيضانا عظيما جرفه وتركه محطما بالحالة التى أراه عليها ، ثم قال: « والآن أريد منك أن تخبرنى عما تراه فوقه » ، فأجبته : « إنى أرى جماعات من الناس يمرون عليه ، وأرى سحابة سوداء معلقة فوق كل طرف من طرفيه » . ثم أنعمت النظر فوجدت عددا من المارة يهوون من فوقه إلى السيل الجارف الذى يجرى من تحته ، وشاهدت بعد ذلك عددا لا يحصى من الأبواب السرية مختفية فى بنائه ، لا يكاد المارة يطأونها بأقدامهم حتى يتردون من خلالها فى التيار الجارف ويختفون على الأثر . وتكثر هذه الشراك الخفية عند مدخل الجسر ، ولهذا فإن الناس لا يكادون يخرجون من بين السحابة القاتمة حتى يتردى الكثيرون منهم فيها ، ثم يقل عددها فى الوسط ولكنها تزداد وتتقارب عند نهاية العقود السليمة .

« ورأيت بعض الناس — ولكنهم قليلو العدد جداً — يستمرون فى السير بخطى عرجاء على العقود المهشمة ، ولكنهم يتساقطون عنها واحدا فى إثر واحد ، وقد أعياهم التعب وخارت قواهم من طول الطريق .

«وقضيت بعض الوقت أتأمل هذا البناء العجيب وما رأيته عليه من مناظر مختلفة ، وكان مما أحزننى أن أرى عددا من الناس يهوون فجأة وسط أفراحهم ومرحهم ، ويتشبثون بكل ما يجدونه فى طريقهم ، يحاولون أن

ينجوا به أنفسهم من الهلاك . ورأيت جماعة يرنون بأبصارهم نحو السماء كأنهم يفكرون فيما يفعلون ، وبينما هم فى تفكيرهم إذا بهم يتعثرون فيسقطون . وكانت جموع كثيرة من الناس يجهدون أنفسهم فى الجرى وراء فقاعات فى الطريق تبرق وترقص أمام أعينهم ، حتى إذا ظنوا أنفسهم على قيد شعرة منها زلت أقدامهم وهووا فى اليم ، وأبصرت فى هـذا الخضم خلائق بأيديهم سيوف يغدون بها فوق الجسر ويروحون ، يدفعون ببعض الناس فى الأبواب المسحورة التى لم تكن فى طريقهم ، والتى كان فى وسعهم أن ينجوا منها لو لم يدفعوا إليها .

« ورآنى الجنى أطيل التأمل فى هذا المنظر المحزن فقال لى إنى قد شغلت نفسى به أكثر مما ينبغى ، وأمرنى أن أحول نظرى عن الجسر ، وأن أخبره هل أرى شيئا غيره لا أفهمه، فأطعت أمره ونظرت حيث أمرنى ، ثم سألته : « وماهذه الأسراب العظيمة من الطير التى لا تفتأ تحوم فوق الجسر ، ثم تنقض عليه بين الفينة والفينة ؟ إنى أرى نسورا نهمة وطيورا أخرى جارحة ، وأرى بينها غلمانا صغارا ذوى أجنحة تنزل جماعات فوق العقود الوسطى » فأجابنى الجنى : « إن هذه هى الحسد والبخل والخرافات واليأس والحب وأمثالها من الهموم والانفعالات التى تكتظ بها الحياة البشرية » .

« وسمعت هذا فأمضنى وفتّ فى عضدى ، وقلت فى نفسى : ما أتعس الإنسان ! لقد خلق عبثا ! إنه يسلم نفسه للبؤس والموت ، ويعذّب فى حياته ، ويظل كذلك حتى يبتلعه الموت » وأشفق الجنى علىّ فأمرنى أن أحول نظرى عن هذا المنظر المؤلم ، وقال لى: «لا تنظر بعد الآن إلى الإنسان فى المرحلة الأولى من حياته حيث يبدأ مسيره نحو الأبدية ، ولكن انظر

إلى هذا الضباب الذى تهوى إليه تلك الجماعات الكثيرة يحملها إليه السيل الجارف . فحولت نظرى حيث أمرنى ، ولست أدرى هل أمد الجنى الطيب عينىَّ بقوة من عنده فوق قوتهما ، أو بدد بعض الضباب الذى لم تكن تستطيع العين أن تنفذ فيه من قبل لكثافته ، ولكننى رأيت الوادى ينفرج عند طرفه البعيد حتى يصبح بحرا من الماء لا شواطئ له ، وفى وسطه صخرة عظيمة من الحجر الصلب مقسمة قسمين متساويين ، ورأيت السحب لا تزال تخيم فوق أحد النصفين ، وقد بلغ من كثافتها أن حجبت عنى كل شىء فيه . أما نصفه الثانى فقد بدا لى بحرا محيطا عظيما تتخلله جزائر لا تحصى تغطيها أشجار الفاكهة والأزهار ، وتتخللها بحار صافية ذات مياه متلألئة . واستطعت أن أرى فيها أناسى فى ثياب جميلة على رؤوسهم تيجان من الورود والرياحين ، يغدون ويروحون بين الأشجار والأزهار ، أو يضطجعون بجوار عيون الماء أو فى أحواض الزهر . وسمعت أصواتا متناسقة متناغمة من غناء الطير وخرير الماء وحديث الآدميين وعزف الآلات الموسيقية . ولقد سرنى وأثلج صدرى أن أرى هذا المنظر البهيج ، وكم تمنيت لو أن لى جناحى نسر أطير بهما إلى هذه الأماكن السعيدة ، ولكن الجنى أكد لى أن لا سبيل إلى الوصول إليها إلا من خلال أبواب الموت التى أراها تنفتح على الجسر فى كل ساعة ، وقال : « أما الجزائر التى تراها أمامك خضراء ناضرة ، والتى تنتشر على وجه البحر المحيط كله إلى أبعد حدود البصر فهى أكثر عددا من رمال الصحراء ، وهناك الآف منها من ورائها لا تدركها العين ولا يحيط بها الوهم . وتلك هى قصور الصالحين من الناس يخلدون فيها بعد الموت ، وهم يوزعون عليها حسب ما يمتازون

به من الفضائل ، ويتمتعون فيها بأنواع من النعيم مختلفة ، ودرجات منه متفاوتة تتناسب مع أمانى من يقيمون فيها وفضائلهم ، وكل جزيرة منها جنة أعدت لساكنيها . أليست هذه يا مرزا مساكن جديرة بأن يسعى إليها بنو الإنسان ويحرصوا عليها ؟ وهل تكون الحياة تعسة إذا هيأت للناس الفرص لنيل هذا الجزاء ؟ وهل يليق بالإنسان أن يخشى الموت وهو السبيل إلى نيل هذه السعادة الأبدية ؟ لا تظن يا مرزا أن الإنسان خلق عبثا ، وهو الذى أُعِدَّ له هذا النعيم الخالد» . ونظرت وأنا منشرح الصدر إلى هذه الجزائر السعيدة ثم قلت للجنى : « أتوسل إليك أن تطلعنى على الأسرار الكامنة تحت هذه السحب القاتمة التى تغطى صفحة البحر المحيط وراء الصخرة الجامدة » . وصمت الجنى ولم يُحر جوابا ، فالتفت حولى لأعيد عليه السؤال ، ولكنى لم أجده فى موضعه ، ونظرت مرة أخرى إلى المنظر الذى كان أمامى ، والذى ظللت أتأمله زمنا طويلا ، فلم أر السيل الجارف ، ولا الجسر ذا العقود ، ولا الجزائر الخضراء الجميلة ، لم أر شيئا من هذا كله بل رأيت فى مكانه وادى بغداد الطويل الأجرد ، يرعى على جوانبه البقر والضأن والخيل » .

تجمد الألفاظ فى نوڤا زمبلا [1]

بقلم
جوزف أدسن

١٠

خير ما أستمتع به من الكتب كتب الأسفار ، وبخاصة ما كان منها وصفاً للأقطار النائية ، لأنه يتيح لكاتبها فرصة إظهار مواهبه من غير أن يعرض نفسه لخطر النقد والمعارضة . وقد امتاز مواطننا سير جون مندڤيل John Mandeville [2] عن جميع كتاب الرحلات بعبقريته العظيمة وقوة ابتكاره المدهشة ؛ ويليه فى هـذا فردنند مندز بنتو Ferdinand Mendez Pinto [3] وهو كاتب كثير الأسفار واسع الخيال . ولا تقل دهشة الإنسان عند ما يقرأ رحلات هذين الكاتبين العبقريين عن دهشته من أسفار أوديسيس Odysseus فى أشعار هوميروس .

---

(١) جزيرة فى المحيط الجامد الشمالى فى أقصى شمال أوربا .

(٢) سير جون مندڤيل .Sir John Mandeville رحالة وكاتب من كتاب القرن الرابع عشر ، له كتاب فى الرحلات كتبه بالفرنسية ، يقول فيه إنه سافر من إنجلترا فى عام ١٣٢٢ إلى بلاد الترك والأرمن والفرس والشام وجزيرة العرب ومصر ولوبيا والحبشة وبلاد العراق والهند . وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية فى أوائل القرن الخامس عشر كاتب غير معروف . وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة .

(٣) فرنسسكو مندز بنتو .Francisco Mendes Pinto رحالة برتغالى عاش فى القرن السادس عشر طاف ببلاد الصين واليابان وكتب وصفاً لرحلاته . وهذا هو اسمه الصحيح وإن كان أدسن يسميه فردنند .

ولقد وقع فى يدى بطريق المصادفة عدة مخطوطات لهذين الكاتبين العظيمين حوت من العجائب أعظم مما حوته كتبهما الأخرى التى نشراها على الجمهور ؛ ولولا ثقة الناس بصدق كاتبيها لعدوها من المستحيلات . ويخيل إلىّ أنهما لم ينشرا هذه الكتب كما نشرا غيرها خشية أن يظن الناس أن ما حوته من الأخبار الغريبة كله من نسج الخيال ؛ وذلك احتراس كان له ما يبرره فى الوقت الذى لم تكن فيه ثقة الناس بأقوالهما قوية كما هى فى هذه الأيام[1] . والآن وقد زال هذا السبب فإنى سأهدى إلى قرائى قطعاً من هذه المخطوطات العجيبة حين يعوزنى غيرها من الموضوعات .

وسأبدأ بعدد اليوم فأقدم لهم فيه قطعة ممتازة من يوميات سير جون مندڤيل ، يصف فيها هذا العالِم الجليل كيف كانت بعض أحاديثه القصيرة فى نوڤا زمبلا تتجمد ثم تسيح .

ولست أحب أن أطيل انتظار القراء ، ولذلك سأنقل إليهم ما كتبه الكاتب القدير ، مجيزاً لنفسى أن أوفق بين أسلوبه وأسلوب اللغة الحديث . قال الكاتب :

« هبت علينا عاصفة هوجاء فرقتنا عند الدرجة الثالثة والسبعين من درجات العرض الشمالية ، وقذفت بسفينتنا هى وسفينة هولندية وأخرى فرنسية إلى خليج أمين فى نوڤا زمبلا ، فنزلنا إلى البر لنصلح من شأن مراكبنا ونتزود بحاجتنا من الطعام والشراب . وأقام بحّارة كل سفينة لأنفسهم بيتا من الطين والأغصان على مسافات متقاربة يقيمون فيه جميعاً ، ويتقون به غائلة البرد ، وهو فى هذا الإقليم شديد لا يطاق . وسرعان ما تبينا أن حديثنا تضيع منه بعض الألفاظ ، وأن أصواتنا لا تصل إلى

(١) هذا بالطبع نقد لاذع لهذين الكاتبين .

أبعد من مترين فى الفضاء إذا كنا نتحدث ونحن جلوس بجانب النار . وبعد تفكير طويل أدركت أن الألفاظ تتجمد فى الهواء قبل أن تصل إلى آذان السامعين ، وأكد ذلك لدىّ أن الجماعة كلها أصابها البكم أو بالأحرى أصابها الصمم ، حينما اشتد البرد ، وأقول الصمم لا البكم لأنى عرفت بعدئذ أن كل واحد منا كان يشعر أنه يتحدث ، كما كان يتحدث من قبل ، ولكن الألفاظ كانت لا تكاد تخرج من أفواهنا حتى تتجمد وتبقى كذلك فى الهواء . وكان منظرنا غريباً مؤلما حين تتحرك شفاهنا ، وتنفتح أفواهنا ، وتنحنى رؤوسنا ، ويتحدث كل منا ، ثم لا يستمع أحدنا صوت صاحبه . فكنت ترى الملاح الذى يستطيع أن يرسل صوته فى عرض البحر إلى سفينة على بعد فرسخ كامل ، يُلوِّح بيديه ، ويفغر فاه ، ويزفر من كل رئتيه ، ولكنه عبثاً يحاول إسماع صوته إلى زملائه ، فلم يكن ثمة لفظ ولا صوت يخرج من فيه .

« وظللنا على هذه الحال المحزنة ثلاثة أسابيع كاملة ، ثم تغير مهب الريح ، ودفئ الهواء قليلا ، فامتلأ بيتنا شيئاً فشيئاً بطقطقة وفرقعة عرفت فيما بعد أنها ناشئة من تكسر الحروف الهجائية فوق رؤوسنا ؛ وكثيراً ما اختلطت هذه الأصوات بصفير خفيف ناشئ من تكسر حرف السين ، وكان أول ما سمعته من الحديث المتصل نسيما من الهمس الخافت مكون من مادة رقيقة لطيفة جعلته يسيح قبل غيره فى الريح الدفئة التى هبت وقتئذ على بيتنا ؛ وأعقب هذا أجزاء من كلمات ، ثم جاءت فى إثرها كلمات قصيرة ، وانتهى الأمر بأن سمعنا جملا كاملة ساح بعضها قبل بعض حسب درجة تجمدها ؛ ولم نشعر إلا ونحن نسمع كل ما تحدثنا به فى الأسابيع الثلاثة التى ظللنا

فيها صامتين ، إذا كان لى أن أعبر عن حالنا بهذا التعبير .

« وكنا وقتئذ فى الصباح الباكر ، ولكنى دهشت حين سمعت صوتاً يقول : « إننا الآن ياسير جون فى منتصف الليل ، وقد آن أن يأوى الملاحون إلى فراشهم ليستريحوا » . وتبينت فى هذا صوت الدليل ، ثم عدت إلى الماضى فاستنتجت أن الدليل قال لى هذه العبارة من بضعة أيام ، ولكننى لم أسمعها حتى دفئ الهواء وساحت الألفاظ . وفى وسع القارئ أن يتصور دهشة الملاحين العظيمة وهم يسمعون أنفسهم يتحدثون ، ولكن أحداً منهم لا يحرك لسانه أو يفتح فاه . وبينا نحن فى هذه الدهشة إذا بى أسمع طائفة من اللعنات تنصب علىّ بصوت أجش ، عرفت فيه صوت نائب الرئيس ، وهو شخص غضوب ظن أننى لا أسمع ما يقول ، فأخذ يصرخ فى وجهى ويكيل لى الشتائم لأنى كثيراً ما عاقبته على سوء أدبه ، وعنفته على فُحش لفظه ، كلما التقيت به على ظهر المركب .

« ولما أوشكت هذه الجلبة على الانتهاء ، بدأت أنا الحديث ، بأن عرضت على الزملاء أن نزور بيت الهولنديين ، وكان على بعد ميل فى داخل الجزيرة . وترددت كثيراً قبل النطق بهذا الكلام لأنى كنت أخشى ألا يسمعه أحد كما كانت الحال من قبل . وسر الملاحون كثيراً عند ما تبينوا أنهم عادت إليهم قدرتهم على السماع ، وإن كان الخوف قد تملكهم جميعاً فى أثناء الحديث ، كما تملكنى أنا نفسى ، وأخذ كل منهم يجرب التحدث إلى نفسه ، قبل أن يتحدث إلى زميله .

« وعند ما وصلنا إلى منتصف الطريق سمعنا زئير دب ، ارتعنا له أول الأمر ، ولكن أحد الرفاق أخبرنا أن الدب ميت ، وأنه قُتل فى ذلك

المكان بعينه قبل أسبوعين فى وقت اشتداد البرد؛ وكذلك سمعنا غير بعيد من ذلك المكان نباح كلب مات من قبل .

« ثم وصلنا آخر الأمر إلى مكان الهولنديين ؛ ولما دخلنا منزلهم وجدناه ممتلئاً بأصوات شممنا فيها رائحة النبيذ وغيره من الروائح الكريهة ، ولكن أحداً منا لم يفهم من هذه الأصوات شيئاً ، إلا خادمى ، وقد غضب أشد الغضب من بعض ما سمع ، وكان إرلنديا يفهم اللغة الهولندية ؛ فاستل سيفه ، ولكنه لم يعرف على من يقع الذنب فرده مرة أخرى إلى غمده . وصدّعت رؤوسنا هذه الأصوات ، ولكنها لم تتجمع فى كلمات إلا بعد نصف ساعة من قدومنا ؛ وفى رأيى أن منشأ هذا هو خشونة أصوات لغة الهولنديين وقسوتها ، وهى من أجل ذلك تحتاج إلى وقت كبير حتى تنصهر وتسمع على حقيقتها .

« وبعد أن حيانا الهولنديون أطيب تحية ، تركناهم وذهبنا لزيارة الفرنسيين ؛ وأراد هؤلاء أن يعوضوا ما فاتهم من سكون طوال الأسابيع الثلاثة الماضية ، فأخذوا يتحادثون ويتجادلون فى جلبة وأصوات مختلفة ، وبسرعة لم أسمع مثلها قط فى مجتمع آخر ، حتى فى بلاد أولئك القوم أنفسهم .

وتبين لى أن لغتهم تكسرت وساحت عند أول هبوب الريح الدفئة ؛ وهنا عرفت خطأ وقعت فيه من قبل ؛ فقد كنت أظن أن الصوت لا يتجمد إلا إذا كان ملتفاً فى هواء الزفير الذى يخرج معه ، ولكننى وجدت عكس هذا فى بيت الفرنسيين ، إذ سمعت صوت رقص وعزف فوق رؤوسنا . وسألت عن مصدر هذا الصوت فقال لى أحدهم إنه

سيستمر أكثر من أسبوع آخر إذا ظل الجو دفيئاً ، لأنهم حين امتنع عليهم الحديث طلبوا إلى زميل لهم أن يضرب على آلة معه طول النهار ، وأخذوا هم يرقصون ، ليروحوا بذلك عن أنفسهم ، ويقضوا بهذه الطريقة وقتهم »

هذا ما يقوله سيرجون مندفيل ، وقد أضاف إليه كلاماً فلسفيًّا معقولا يفسر به سبب تجمد الأصوات الموسيقية فى أثناء البرد الشديد ، ولكنه شرح مطول سأضرب صفحاً عن ذكره ، وكل ما ألاحظه بشأنه أن المؤلف الكبير يدل بكثرة مقتبساته على أنه يجيد حفظ قصائد الشعراء الأقدمين ، وأن هذه القصائد سمت بخياله إلى ما فوق مستوى خيال المؤرخين ، وجملت عباراته وأسلوبه أعظم التجميل .

حركات المراوح

بقلم

چوزف أدسن

١١

لست أدرى أيقصد كاتب هذا الخطاب أن يسخر من سيدات هذه الأيام ، أم يريد أن يعرض على القراء صورة صادقة من أدبهن ورقيهن ، أم أنه يقصد شيئاً غير هذا وذاك لم يخطر لى ببال ؟ ومهما يكن قصد الكاتب فإنى سأعرض على القراء خطابه كما هو ، وأترك لهم أن يستدلوا منه على مقصده ؛ وها هو ذا خال من المقدمات والحواشى .

سيدى :

المراوح للنساء كالسيوف للرجال ، كلتاهما سلاح فتاك ، ولكن ضحايا الأولى أكثر من ضحايا الثانية . وقد أردت أن أمكّن النساء من السيطرة على سلاحهن إلى أقصى حد ، فأنشأت لهذا الغرض معهداً لتدريب الفتيات على حركات المراوح ، حتى يراعين فيها أحدث الطرق المتبعة فى بلاط الملوك فى هذه الأيام . وتجتمع تلميذاتى لهذا الغرض مرتين فى اليوم فى البهو الكبير فى معهدى ، وفيه أدربهن على طريقة استخدام سلاحهن بالعبارات الآتية :

حركن المراوح

افتحن المراوح
اقذفن المراوح
ألقين المراوح
استعدن المراوح
هفهفن بالمراوح

فإذا عنيت السيدة متوسطة الذكاء بمراعاة هذه الأوامر السهلة القصيرة وواظبت على حضور التدريب مدة لا تزيد على ستة أشهر ، استطاعت أن تُكسب مروحتها كل ما تستطيع هذه الآلة الصغيرة الحديثة أن تتصف به من ضروب الرشاقة .

لكننى أحب أن أعطى قرائى فكرة صحيحة عن هذا التدريب ، ولذلك أستأذنهم فى أن أشرحه لهم شرحا وافياً مفصلا . فأقول : إذا اصطف جيشى النسائى وأصبحت كل واحدة فيه مستعدة للعمل ، وسلاحها فى يدها ، أمرتهن أن « يحركن المراوح » ، وعندئذ تحرك كل واحدة منهن مروحتها فى اتجاهى ، وتصحب هذه الحركة ابتسامة لطيفة ثم تقرع بمروحتها السيدة المجاورة لها من جهة اليمين قرعا خفيفاً ، وتمس بشفتيها طرف المروحة ، وتنزل يدها إلى جانبها بحركة سهلة خفيفة ، وتقف مستعدة لتلقى الأمر الثانى . وهى تفعل كل هذا ومروحتها مقفلة ، وتتعلمه عادة فى الأسبوع الأول .

وتأتى بعد ذلك حركة «فتح المروحة » . وتشمل هذه الحركة عدداً من الهزات والذبذبات الصغرى كما تشمل عدة محاولات تدريجية مقصودة لفتحها ، وعجزاً متعمداً متكرراً عن فتحها . وقلما يتقن النساء هذه الحركة فى أقل من شهر كامل . وهذا الجزء من التدريب يسر النظارة أكثر من غيره . لأنه

يكشف لهم فجأة عن عدد كبير من صور آلهة الحب ، وتيجان الزهر ، والطير والحيوان ، وأقواس قزح وأشباهها من الصور الجميلة التى تظهر كلها لأعينهم فى هذه الحركة ، والتى تمسك كل سيدة بيدها واحدة منها .

ثم أصدر بعد ذلك أمرى التالى وهو « أطلقن المراوح » ، وعندئذ تصدر منها فرقعة عامة تسمعها على بعد عظيم إذا كانت الريح تهب نحوك . وهذا الجزء من أصعب أجزاء التدريب ، ومع ذلك فإن فى جيشى الآن من السيدات من لم تكن تستطيع عند التحاقها به أن تحدث طلقة تسمع فى ركن الحجرة التى هى فيها ، وقد أصبح فى مقدورها الآن أن تطلق مروحتها بحيث يصدر عنها صوت لا يقل عن صوت المسدس . ولقد عنيت فوق هذا بأن أدل النساء على الظروف التى يصح فيها قرع المراوح ، وذلك لكيلا تقرعها الفتيات فى غير الأماكن المطلوبة وفى غير الأوقات المستحبة . وقد اخترعت أيضاً لهذا الغرض مروحة حُبِس فى إحدى عِصِيِّها الكبيرة مقدار من الهواء ، وتستطيع بها فتاة فى السادسة عشرة من عمرها أن تحدث فرقعة لا تقل عن التى تحدثها سيدة فى الخمسين بمروحة عادية .

وبعد أن تنطلق المراوح على النحو السابق أصدر أمرى بأن « تطرح المراوح » . ويقصد بهذه الحركة أن تتعلم السيدة كيف تلقى مروحتها برشاقة إذا اضطرت إلى وضعها بجانبها لتمسك أوراق اللعب ، أو تصلح خصلة من شعرها ، أو تعيد دبوساً سقط منها إلى موضعه ، إلى غير ذلك من الأعمال الخطيرة . وكل ما تشمله هذه الحركة هو أن تطرح السيدة مروحتها طرحا جميلا على منضدة طويلة معدة إلى جانبها لهذا الغرض . وفى وسع السيدات أن يتقنها فى خلال يومين ، ولكن منهن من لا يجدنها فى أقل من سنة كاملة

وإذا ما جرد النساء من سلاحهن بهذه الطريقة أمرتهن عادة أن يسرن فى الحجرة مدة من الزمن ، ثم آمرهن فجأة أن يستعدن سلاحهن ، (كما تفعل السيدات بعد أن ينظرن إلى ساعاتهن وهن فى زيارة طويلة) . فإذا أصدرت هذا الأمر أسرعن إلى مراوحهن وأمسكن بها من فورهن . ولا تلاقى السيدة فى هذا الجزء من التدريب صعوبة ما إذا وجهت إليه بالها . وآخر الحركات كلها وأمتعها على الإطلاق حركة هفهفة المراوح . وفى وسع السيدة أن تتقن هذه الحركة فى ثلاثة أشهر إذا كانت قد أحسنت الإفادة من مدة التمرين السابقة ، ولم تكن قد صرفت وقتها عبثاً . ومن عادتى أن أختار لتعليم النساء هذه الحركة أيام الحر الشديد ، لأنى حين آمر السيدة بهفهفة المراوح يمتلئ المكان بنسيم عليل ينعش الأجسام فى ذلك الفصل من السنة ، مع أنه قد يكون فى غير هذا الفصل ذا أثر سيئ فى بنية السيدات المترفات .

وثمة عدد لا يحصى من الحركات المختلفة تستطيع السيدة أن تكشف عنها بهفهفة المروحة ؛ فمنها الهفهفة الغضبى ، والهفهفة المتواضعة ، والهفهفة المرتبكة ، والهفهفة المَرِحة ، والهفهفة العاشقة . وقصارى القول أن كل عاطفة فى القلب ، وكل حركة فى النفس ، تقابلها حركة مناسبة لها بالمروحة ، كما أن فى وسع الإنسان أن يستدل من حركة مروحة السيدة التى أحسن تدريبها على ما يجيش فى نفسها من العواطف ، وأن يعرف هل تريد أن تعبر عن الضحك ، أو العبس ، أو الخجل ، أو غيرها . ولقد شاهدت مروحة غضبى إلى درجة يصبح من الخطر معها على العاشق الغائب الذى أثار هذا الغضب أن يقترب من مهب الريح التى أحدثتها ، ورأيت مراراً أخرى مراوح مضناة سقيمة سقماً حمدت الله معه أن المحب بعيد عنها لا يراها.

وقبل أن أختتم هـذا الخطاب أرى من واجبى أن أخبرك أنى جمعت مشاهداتى فى هذا الموضوع فى رسالة صغيرة عظيمة الفائدة لتلميذاتى ، وسميتها « عواطف المروحة » . وأنا على استعداد لأن أرسلها إليك إذا ظننت أن فى إذاعتها نفعاً للجمهور ، وسأعد فى يوم الخميس المقبل استعراضاً عاما لجيشى ، يسرنى جداً أن أرحب بك فيه إذا رأيته جديراً بتشريفك .

وتفضل يا سيدى بقبول . . . الخ .

حاشية : إنى أعلم الفتيان فن ملاطفة المراوح من أوله إلى آخره .

ملاحظة : لدى عدد من المراوح البسيطة التى تستخدم لهذا الغرض صنعتها خدمة للسيدات .

نادى القصار

بقـلم

الـكسندر پوپ Alexander Pope

١٦٨٨ — ١٧٤٤

[كان من صباه ضعيف البنية ، ولذلك لم تكن دراسته منتظمة ، وكان معظمها فى منزله . وكتب الشعر وهو فى سن الثانية عشرة ؛ وقبل أن يبلغ العشرين من عمره كتب مسرحيتين مأساة وملهاة ، وملحمة شعرية ، ولـكنه أحرقها جميعا . ثم كتب مقالة فى النقد فى الحادية والعشرين من عمره ، وبدأ يترجم إلياذة هوميروس فى الخامسة والعشرين ، وأتمها فى سبع سنين ، وترجم بعد ذلك جزءا كبيرا من الأوذيسة ملحمة هوميروس الأخرى . ومن أعظم قصائده الـكبيرة قصيدته الشهيرة المسماة « مقال عن الإنسان Essay on Man » وهى من الشعر الفلسفى .

ولپوپ عدة رسائل ومقالات وقصائد أخرى فى النقد والهجاء ، ومن أشهرها كلها ملحمة الأغبياء The Dunciad فى هجاء منافسيه من الأدباء] .

١٢

خير المبادىء الخلقية كلها أن يجرى الإنسان على سجيته . وكاتب الرسالة التالية مقتنع كل الاقتناع بهذه الحقيقة ، ولهذا تراه يتخذ من قِصَره موضوعا للمرح والدُّعابة اللطيفة ، مع أن هذه الصفة من شأنها أن

تجعل الإنسان شكسا نكدا ، كثير الاهتمام بصغائر الأمور . وهو يقول في رسالته إن طوله لا يزيد على نصف طول الرجل العادى ، ولكنه لا يأبه بهذا القصر ، ولا يمنعه ذلك أن يكون على الدوام إلى جانب أصدقائه ، يعاونهم ويقضى حاجاتهم . ولقد أنشأ فى بلده ناديا يعمل على إذاعة فضل القصار .

وها هى ذى الرسالة التى بعث بها إلىّ :

«سيدى : لست أنسى لكم ، حين كنتم تتحدثون عمن قصرت قامتهم ، قولكم إن الناس لا يلحظون قط قصرهم إذا كانوا هم لا يكشفون بأعمالهم عن إحساسهم بهذا القصر . والحق أن الحكمة القائلة بأن الإنسان لا يسخر منه لحالته التى هو عليها ، وإنما يسخر منه لادعائه أنه أعظم مما هو ، لتصدق على جسم الإنسان كما تصدق على عقله سواء بسواء .

«ولست أشك فى أنكم ستسرون إذا علمتم أن طائفة منا قد كونت من نفسها جماعة تعاهد أعضاؤها على ألا يستحوا من أن يكونوا قصارا ، وأن يباهوا بفضيلة القصر فى وجه المَرَدة الطوال من بنى الإنسان ، الذين يغتصبون من فضاء الله أكثر مما لهم ، ويُطِلون علينا من فوق رؤوسنا ، كأنهم يطلون علينا من السماء .

« وكان يوم افتتاح معهدنا هو اليوم العاشر من ديسمبر أقل أيام السنة طولا[1] ، وسنحتفل بهذه الذكرى فى نفس هذا اليوم من كل عام ، ونُقَدم فيه للأعضاء من الطعام جراد البحر لأنه أصغر الحيوان جسما . ولما اجتمعنا

---

(١) هكذا يقول الكاتب ولكن المعروف أن اليوم الثانى والعشرين من هذا الشهر هو أقصر أيام السنة .

لأول مرة فى نادينا جاءتنــا سيدة عجوز معها طفل لها تريد منا أن نربيه فى مدرستنا لأنها رأتنا « فتية أحسن ممن ألِـفَت رؤيتهم من قبل » . على أن هذه الحادثة لم تفت فى عضدنا ، وبدأنا عملنا بأن دعونا كل من لا يزيد طوله على خمس أقدام للحضور إلى نادينـا . ولـكن معظم من دعوناهم أرسلوا إلينا يعتذرون أو يقولون إنهم غير حائزين للمؤهلات المطلوبة .

« وأجاب واحد منهم بأنه لا ينكر أنه يبلغ الآن خمس أقدام ، ولـكنه واثق من أنه سيتجاوز هذا الطول ، لأن صانع ملابسه وصانع أحذيته أسَـرّا إليه بأنه سيبلغ عما قريب خمس أقدام وثلاثة قراريط .

وادعى آخر أن من سوء حظه أن إحدى ساقيه أقصر من أختها ،وأن الذى قدر طـوله بخمس أقدام قد ظلمه ، إذ قدره وهو واقف على أقصر ساقيه ، فى حين أنه إذا وقف على ساقه الـكبرى بلغ طوله خمس أقدام وقيراطين ونصف قيراط على أقل تقدير .

ومنهم من شَكُّـوا فى دقة مقاييسنا ، ومنهم من لم يلبوا دعوتنا ، ولـكنهم بعثوا إلينا يدلوننا على أناس أشـد منهم قصراً . وقصارى القول أن كل واحد تقريبا قد أوصى بجار له أو صـديق يريد منا أن نعده أقصر منه نفسه . ولشد ما أخجلنا أن نرى أولئك الذين تجاوزوا سن النمو ، والذين تنطق لحاهم بأنهم بلغوا مبلغ الرجال ، يعمدون إلى تلك الصغائر التى يلجأ إليها أكثر الأطفال طموحا حين تقاس أطوالهم .

ومن أجل هذا لم نعن بهؤلاء ، بل شرعنا نؤثث نادينا ونجهزه بوسائل الراحة لأنفسنا . وبدأنا بإزالة جميع ما كان فيه من الـكراسى والمقاعد الأخرى والمناضد التى ظل يستخدمها طوال الناس فى هذا المـكان عدة سنين؛

وذلك لأننا لاقينا فى استخدام هذه المقاعد القديمة متاعب جمة لا يستطاع وصفها . فقد كان رئيس النادى حين يجلس على كرسى الرياسة يغوص جسمه كله فيه ، وإذا اتكأ بذراعيه على مسنديه بدا كأنه طفل فى عربته ؛ وكان هذا امتهاناً شديدا لقدره . يضاف إلى هذا أن المقعد كان يبلغ من السعة حداً أتاح لأحد الظرفاء ، وقد دخل إلى نادينا على حين غفلة ، أن يقول إن موضع الرياسة كان شاغرا وإن كان الرئيس جالسا فيه .

« أما المائدة فقد بلغ من ارتفاعها أن ذقوننا لم تكن ترتفع فوق صحاف الطعام ؛ وحدث أن رأى ذلك أحد الزائرين وظننا جماعة من الرجال جاءوا لتتحلق لهم لحاهم ، فخرج من فوره وأرسل إلينا طائفة من الحلاقين . وحدث مرة أخرى أن ظن أحد الأعضاء أن الرئيس غائب عن الجلسة فأخذ يقدح فيه ويستطيل فى عرضه ؛ ولم يكن الرئيس غائبا فى الحقيقة، بل كل ما فى الأمر أن زجاجة الشراب كانت أمام وجهه فحجبته عن الأعين . لهذا لم نر بدًّا من أن نستبدل بأثاث النادى أثاثا جديدا يلائم حالتنا كل الملاءمة ؛ ولهذا أيضا أنزلنا أسكفّة الباب حتى لا يستطيع دخوله من زاد طوله على خمس أقدام إلا إذا احتك بها رأسه ، ومن كانت هذه حاله لا يصح قبوله عضوا فى جماعتنا .

وإليك بعض قوانين نادينا :

١ — إذا ثبت أن أحد الأعضاء ، مهما تكن مؤهلاته الأخرى ، قد حاول التظاهر بأنه أكبر من حقيقته ؛ بأن تمطط أو انتفخ ، أو وقف بين الناس على أصابع قدميه لكى يظنه الناس طويلا مثلهم ، أو جلس على كتاب كبير أو مضرب كرة ، أو احتال بأية وسيلة أخرى على أن يرتفع

فى مقعده ، إذا ثبت أن أحد الأعضاء ارتكب شيئا من هذا كان جزاؤه أن يمشى بين الناس فى حذاء لا كعب له شهراً بأكمله .

٢ — إذا حاول أحد الأعضاء أن يطيل شعره المستعار ، أو ثيابه أو قبعته أو غيرها ، لكى يبدو أطول مما هو ، حكم عليه بأن يلبس حذاء ذا كعب أحمر وقبعة ذات ريشة حمراء ، ليحدد الكعبان والريشة طوله فيعرفه الناس على حقيقته .

٣ — إذا اشترى عضو لنفسه حصانا يزيد ارتفاعه على أربع عشرة قبضة ونصف قبضة ، بيع هذا الحصان على الفور واستبدل به حصان اسكتلندى لا يزيد على هذا الطول ، وضم الفرق بين الثمنين إلى أموال النادى .

٤ — إذا اجترأ أحد الأعضاء على مخالفة قوانين النادى الأساسية ، بأن اتخذ له حذاء يزيد ارتفاع كعبه على قيراط واحد ونصف قيراط ، عد هذا العمل منه مجاهرة بنبذ فضيلة القصر ، وأخرج المجرم من بين الجماعة فى الحال . ويوضع القرار الصادر بإخراجه فى الصيغة الآتية :

« أخرج من بيننا وكن طويلا مع الطوال إذا استطعت » .

« وأعضاء نادينا كلهم مجمعون على أن الطبيعة نفسها تعمل عن قصد لإنقاص طول الناس ؛ والدليل على هذا أن الجنس البشرى يتناقص طول أفراده باستمرار من بدء الخليقة إلى الآن .

« واعتقادنا أن الناس كلهم صائرون حتما إلى حد الكمال فى هذا المضمار ، أى أنهم سيصبحون مساوين لنا فى الطول على مر الزمان .

وتفضلوا يا سيدى بقبول تحياتى »

خادمكم المطيع

بب القصير

(طبق الأصل)

مزايا السكنى فى عُلِّيَّة البيت[1]

بقلم

صمويل جنسن Samuel Johnson

١٧٠٩ — ١٧٨٤

[كان أبوه بائع كتب فى بلاد الريف ؛ وبعد أن تعلم فى مدرسة بلده أرسل إلى أكسفرد ، لكن الفقر حال بينه وبين إتمام دراسته فيها ؛ ثم افتتح له مدرسة بالقرب من بلده فلم يأت إليها إلا تلميذان أو ثلاثة منهم داقد جرك David Garrick الممثل المشهور ، واشتغل مراسلا برلمانياً لإحدى الجرائد ، وأخرج فى هذه المدة عدة قصائد وروايات ومسرحيات وأنشأ جريدة الجوال The Rambler . وكان فى الوقت نفسه يعمل فى قاموسه العظيم الذى أذاع شهرته وجاءه بدرجتين جامعيتين من أكسفرد ودبلن ، كما جاءه بمال وفير أنفقه كله فى طبعه . ثم رتبت له الحكومة معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه كان ينفق الكثير منه فى وجوه البر المختلفة .

وكان جنسن زعيم الأدب فى عصره ، وهو الذى أنشأ نادى الأدباء ، وكان من أعضائه صديقه جيمس بزول James Boswell كاتب سيرته الشهيرة التى تعد خير السير على الإطلاق والتى يقول مكولى فيها « إنها رفعت من قدر جنسن أكثر مما رفعته أحسن مؤلفاته » .

---

(١) فى القاموس العلية الحجرة وجمعها العلالى وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Garret وهى الحجرة التى تلى سطح الدار مباشرة .

وخير ما كتبه جنسن « رحلته إلى الجزائر الواقعة فى غرب اسكتلندة » و « حياة الشعراء » ؛ ولكن شهرته لا تقوم على شعره وكتبه ، بل تقوم على شخصيته الفذة ، وحديثه العذب ، وعلى سيرته التى كتبها بزول . وقد كان له أكبر الأثر فى الأدب الإنجليزى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر] .

١٣

إن أكبر ما يعترض سبيل تقدم العلم ميل العقول البليدة للاستهزاء بما لا تفهم . ذلك بأن الإنسان لا يَجدّ ويعمل إلا إذا كان له من وراء جده وعمله أمل ، وكثيراً ما يكون الأمل الوحيد للعاملين أن يمدحهم الناس ويثنوا عليهم ، فإذا لم يجدوا بدل هذا إلا التحقير والإهانة استسلموا لليأس ، كما يستسلم لليأس أيضاً من يجيء إلى المجتمع الصاخب مستمسكا بحياة العلماء المفكرين ، لم يوطن نفسه على مواجهة الحياة العامة ، أو يرض عواطفه على احتمال ما فى حديث الناس من سخافات ، فتراه يغلبه الحياء إذا ما نظر إليه مكذب شكس نظرة من لا يصدق أقواله . وإذا ما ضحك الناس منه واستهزءوا بقوله فقد ينهزم أمامهم مهما يكن مسلحاً بأقوى البراهين ، فإن كان مهندساً خشى أن يقول أمام معارضيه الأقوياء إن فى وسعه أن يهدم الحصون بخيط من حرير ، وإن كان فلكياً لم يقو على التصريح بسرعة الضوء وبعد النجوم الثوابت وعلو الجبال فى القمر .

ولو أنى استطعت أن أتحرر من هذا الجبن لما تخفيت تحت اسم مستعار ، وأنا أطلب إلى هذه الصحيفة أن تنشر على الناس آرائى فى موضوع السكنى فى العُليّـة ، وهو موضوع لم يعن به حتى الآن أجدر الناس بالكتابة

فيه ، ولهذا لم نقرأ عنه إلا قليلا . وقد يكون سبب هذا الإهمال أن الكتاب لا يجدون متسعاً من الوقت لمواصلة البحث الذى يتطلبه مثل هذا الموضوع الدقيق ، وقد يكون سببه أنه يحتاج إلى علم غزير متنوع ورغبة قوية فى الاطلاع قلما يجتمعان فى عقل واحد . ولعل بعض الكتاب قد تنبئوا عما قد تثيره عليهم آراؤهم من صخب وضجيج ، فاحتفظوا بعلمهم فى صدورهم ، وتركوا الحمقى ذوى الأهواء يخبطون فيه خبط عشواء .

لقد عرف الناس من أقدم الأزمنة أن أساتذة الأدب يسكنون عادة فى أعلى الطبقات ، ذلك أن القدامى قد هدتهم حكمتهم عما للأماكن العالية من فوائد للعقل لا تنكر ، وإلا فلم كان مقام ربات الشعر فى ألمبس Olympus[1] أو پرنسس Parnassus[2] حيث وضعها أولئك الذين كان فى وسعهم أن ينشئوا لها العرائش من الأغصان فى الوديان المنخفضة ، أو يشيدوا مذابحها عند منحنيات الأنهار ؟ ولم نشأ جيتر رب الأرباب على الجبال ؟ ولم اجتمعت الإلهات الإناث فوق قمة أيدا Ida[3] ليفصلن فيما شجر بينهن حين اختلفن على من تستحق منهن جائزة الجمال ؟ تلك هى الأساطير التى حاول بها

---

(١) ألمبس Olympus اسم قديم لعدة جبال أشهرها جبل على حدود مقدونيا وتساليا ، كان اليونان الأقدمون يقولون إنه موطن الآلهة ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية آلاف قدم .

(٢) بارنسس Parnassvs جبل آخر من جبال اليونان على بعد ٨٣ ميلا من شمال أثينة الغربى بالقرب من مدينة دلفى ؛ وهو عند اليونان الأقدمين مقر أبلو وربات الشعر ، ومن أجل هذا عد منبع الشعر والموسيقى . ويبلغ ارتفاع أعلى قممه نحو ٨٦٠٠ قدم .

(٣) أيدا Ida سلسلة جبلية فى آسية الصغرى قرب طروادة وأخرى فى جزيرة كريد وكلتاهما ذات صلة بالأساطير اليونانية القديمة .

الأقدمون أن يظهروا للخلف أهمية العلالى . ولقد ظلت الأجيال التالية لا تدرك المعنى المراد من هذه الأقوال لجهلها وقلة عنايتها ، وإن كان فيثاغورس العظيم قد عناها بقوله المشهور :

« إذا هبت الريح فاعبد صداها »

ولم يكن أتباعه ليفهموا من هذا القول إلا أنه أمر منه ، لا يستطيعون أن يعصوه ، بأن يسكنوا العلالى ، وهى حجر قد وجدت أنا نفسى أنها فى مهب الريح وطريق صداها ؛ وظل هذا المعنى نفسه هو المفهوم من هذه العبارة فى العصر الذهبى للأدب اليونانى . وما من شك فى أن تيبليس Tibullius [1] كان يهنئ نفسه بعليته ويشير إلى حكمة فيثاغورس السابقة حين يقول :

« ما أحلى أن يقضى الإنسـان أوقات فراغه نائماً تهدئه الريح العاصفة والمطر المدرار » . ولا يسع الإنسان إلا أن يتبين حب لـكريتس — وهو كاتب متقدم على تيبليس — لسكنى العلالى فيما وصف به العلم من سمو ورفعة ، وفى قوله إن الرجل الحـكيم يغتبط حين يطل من مركزه الرفيع على العالم وهو يموج ويضطرب من تحته ، وذلك فى قوله :

« ما أحلى أن تقودك خطاك إلى مراقى الفضيلة وأنت مزود بالحـكمة ومسلح بالعلم الخطير الغزير ، ثم تطل من مقامك السامى على بنى الإنسان وهم يتعثرون فى طرق الحياة الملتوية عمياً لا يبصرون »[2] .

---

(١) تيبليس .Tibullis (٥٤ ق . م — ١٨ ب . م) شاعر رومانى من كتاب المراثى الشعرية .

(٢) ليس فى هـذا الوصف بطبيعة الحال إشارة إلى مزايا السكنى فى الحجرات العالية كما يقول الـكاتب مداعبا .

ولقد بقيت سكنى العلالى تقليدا متبعا لدى العلماء إلى يومنا هذا ، فلا تزال هذه الحجرات مأوى الفلاسفة والشعراء ، ولـكن الذى أبقى على هذه العادة ، كما أبقى على كثير غيرهـا من العادات القديمة ، هو التقليد غير المقصود ، دون أن يعرف المقلدون منشأها ، ولا يزال سببها خفيا مجهولا وإن كان أثرها معروفا .

نعم إن هنالك أسبابا يفترضها البعض لتعليل سكنى الأدباء فى هذه الحجرات ، ولـكنها لا تقنع الباحث المحقق . فمن الناس من يظن أن الأديب الألمى يسكن العُلية لأنها أقل أجراً ، واستنتجوا من ذلك أن المقيم فى هذا المسكن الهوائى لا يغتبط به إلا فى اليوم الذى يؤدى فيه أجره ؛ ومنهم من يظن أن أكثر ما يحبب الأديب فى العلالى أنها أبعد أجزاء الدار عن بابها الخارجى الذى يغشاه الزائرون فى كثير من الأوقات ، ولا ينقطع عنده حديثهم عن الخبز والملابس الداخلية والخارجية ، يكررونه كل صباح ، وكثيراً ما يعيدونه بنصه فى المساء ، لا يكاد يختلف فى شىء اللهم إلا فى كثرة الصخب واللجاجة وفى اختلاف الأصوات من الهمس الحزين إلى الغضب الصاخب ، وهذا الاطراد المستمر العملى مما يمقته الرجل الذى لا يلذه شىء أكثر من زيادة معلوماته وتنويع آرائه .

ومنهم من يقول إن الأدباء يختارون هـذا المسكن لأنه يمنع عنهم الضوضاء ويباعد بينهم وبين ما ألفـه النـاس من مشاغل وملاه جمة . وثمة طائفة أكثر من كل هؤلاء تعلقاً بالخيالات والأوهام تقول إن مواهب الإنسان تتسع آفاقها فى المناظر الرحبة المـكشوفة ، وإن الخيال يكون أكثر حرية إذا كان البصر غير محصور فى حدود ضيقة وتلك أسباب للراحة قد تكون كلها متوفرة فى علية الدار إذا أحسن اختيارها .

ولـكن أحداً لا يظن أن لهـا من الخطر ما يجعل لها هذا الشأن العظيم فى كل الجواء وفى جميع العصور وعنـد مختلف الشعوب ؛ وإذا رأيت عادة شائعة منتشرة هذا الانتشار الواسع فالذى يتبادر إلى الذهن أن لها سبباً عاماً ؛ ومهما خفى هذا السبب واستغلق فقد تكون الأقدار قد احتفظت به حتى أكشفه أنا فيعلو قدرى بكشفه وقدرك أيها القارئ بالعمل على نشره .

من المعروف لدى الناس عامة أن المواهب العقلية تقوى أو تضعف تبعاً لحالة الجسم ، وأن الجسم نفسه يتأثر إلى حد كبير بضغط الهواء عليه . ولم ينكر أحد قط من عهد أبقراط إلى يومنا هذا ما للهواء من أثر فى إصابة الجسم بالعلل أو برئه منهـا ، ولـكن أحداً لم يعن قط العناية الواجبة بما للهواء من أثر فى عمل العقل ، وإن كنا نرى فى كل يوم أمثلة من الأفهام والعقول والبدائه السريعة قد تكيفت مواهب أصحابها لتلائم مكاناً خاصاً ، إذا أبعدوا عنه إلى غيره صمتت ألسنتهم وجمدت عقولهم . ولقد تبين لى بعد مشاهدات طويلة أن ملـكة الاختراع وفصاحة اللسان تؤثر فيهما أسوأ الأثر الأبخرة الـكثيفة غير النقية ، وأن رقة الهواء الصافى البعيـد عن سطح الأرض تنمى الخيال وتطلق القوى العقلية التى كانت من قبل أسيرة الجاذبية الشديدة ، مقيدة بها لا تستطيع أن تتسع لما تنوء به من ضغط الهواء الـكثيف . ولقد وجدت أن بلادة الحس تستحيل إلى شعور مرهف فى الوسط الرقيق ، كالماء يسرع فى الغليان إذا وضع فى إناء أفرغ منه بعض الهواء . والرؤوس الفارغة فى الظاهر إذا انتقلت إلى مكان عال ازدحمت فيها الأفـكار حتى تصبح أشبه شىء بكرة القدم التى انتفخت فاتسع فضاؤها وجمدت جوانبها .

ولهذا فإنى لم أعتقد فى يوم من الأيام أن من حقى أن أصدر حكماً قاطعاً على مواهب إنسان ما إذا كنت لم أره إلا على ارتفاع واحد معين ، بل إنى أتحين الفرص فأتبعه من أسفل الدار إلى أعلاها وأشاهد ما يكون لتخلخل الهواء وكثافته وخفته وضغطه من أثر فيه ؛ فإذا لم أجده مرحاً طروباً فى المرتفعات ، أو رزيناً وقوراً فى المنخفضات ، حكمت أنه لا يرجى منه خير أبداً ؛ وقلما صادفت إنساناً خفى عنى مزاجه وما يلائم نسيج عقله إلا استطعت فى الوقت المناسب أن أقيس هذا المزاج بأنبوبة من الزئبق أحدد عليها أولاً النقطة التى يتجلى فيها ذكاؤه بأجلى مظاهره طبقاً لقواعد أنفقت العمر فى دراستها ، ولربما أذعتها على الناس فى رسالة عن « الرياح وقياس ضغطها » .

وقد يكون من أسباب مرح سكان العلالى وخفتهم ازدياد سرعة حركتهم الدائرية المترتبة على حركة الأرض اليومية . فكلنا يعرف ما لقوة الاهتزاز من أثر فى النفس ، وما منا إلا شعر بخفة قلبه وهو فى مركبة سريعة أو على ظهر حصان عداء ؛ وليس شىء أوضح من أن من يقيم فى الطبقة الخامسة من بناء يجتاز فى كل حركة من حركات الأرض فضاء أكثر مما يجتازه من يزحف على سطحها فى الطبقات السفلى ؛ ومن أجل هذا اشتهرت الأمم التى تعيش بين المدارين بحدة طبعها ، وسرعة تقلبها ، وقوة ابتكارها وخيالها ، لأنها تعيش عند طرف أكبر نصف قطر من أقطار الأرض ، فتدور حولها أسرع مما تدور الأمم التى تقيم فى أمكنة أقرب إلى القطبين . ولما كان من واجب كل عاقل أن يعالج ما يصادفه من العيوب ، فإن من واجبنا نحن أن نعالج ما قد يعترينا من خمول بأن ندور

حول مركز الأرض بضع دورات فى حجرة عند سطح الدار .

وإذا بدا للقارئ أنى أعزو إلى الهواء والحركة آثاراً ليست لها فإنى أشير عليه بأن يرجع إلى ذاكرته ، وأن يسأل نفسه : ألم يكن يعرف فى يوم من الأيام رجلا ذاعت شهرته وهو يسكن علية ، فلما أن واتاه الحظ أو جاءه العون من نصير ثرى فسكن فى الطابق الأول لم يستطع أن يحتفظ بما نال من صيت بعيد ، ولم يستعد قوة إدراكه إلا بعد أن ارتد إلى مكانه الأول ؟ وأنا أبعد الناس عن الظن بأن فى مقدور علية الدار أن تجعل كل من سكن فيها فطناً أريباً ؛ فأنا أعرف أن من الناس من يبقى غبياً ولو سكن فى أعلى جبال الأند Andes أو على قمة تنريف Teneriffe .

وأحب ألا يُظنّ أحد من الناس غير قابل للإصلاح إلا بعد أن يجرب فيه هذا العلاج القوى ؛ فلربما كان هذا الرجل قد خلق لأن يكون عظيما فى علية كما لم يكن البحار أرتيوس Aretaeus [1] عاقلا إلا فى مكان واحد دون غيره وهو حانوته الخاص .

وأنا أرى أن انتقال الإنسان على أبعاد مختلفة من مركز الأرض أمر لا غنى عنه للحكم على مواهبه العقلية حكماً صحيحاً ؛ ومن ثم فإن هذا الانتقال عظيم الفائدة فى شئون التعليم ؛ فإذا ما تحقق رجائى فى أن يقبل الجمهور على هذه التجربة الشاملة فإنى أقترح أن يحفر فى الأرض كهف منخفض ويشاد فوقها برج عال ، كالكهف والبرج اللذين يصفهما بيكن Bacon فى بيت

---

(١) أرتيوس Aretaeus طبيب وكاتب يونانى عاش فى القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد ، وكتب رسالة فى ثمانية مجلدات فى أسباب الأمراض المزمنة الحادة وأعراضها وطرق علاجها .

سليمان ، لكى يتمدد فيهما عقل الإنسان أو يركز حسبما تقتضيه ظروف أعمال النـاس وبنيتهم المختلفة ؛ وربما تبين أن الذين تتطاير أفـكارهم عن الفضاء والزمن فى أعلى البرج يستطيعون أن يضعوا جداول رياضية دقيقة عظيمة النفع إذا نزلوا قليلا إلى أسفل ، وأن الذين يقضون الوقت فى خمول وسكون عند سطح الأرض قد يستخفهم المرح فى الطبقات العليا فتصدر منهم فيها الإجابات المفحمة والخطب الحماسية .

ويقول أدسن Addison إن فى مقدورنا أن نجد حرارة الجو الذى كان يقيم فيه فرچل فى بعض سطور قصائده ؛ ومصداقاً لهذا أقول إنى إذا قرأت كتاباً ما عرفت منه فى الحال ارتفاع مسكن مؤلفه . ويقول الناس عادة إذا أرادوا أن يثنوا على قطعة أدبية جليلة المعنى رصينة اللفظ : إنها « تشم فيها رائحة المصباح » . أما أنا فإن الذى أمتدح به الفكرة النبيلة ، أو الملحة اللطيفة ، أو الاستعارة القوية ، هو أن أقول إنها « خارجة لساعتها من علية الدار » . وتلك عبارة جديرة بأن يوصف بها كل ما يكتب فى هذه الصحيفة من مقالات .

التعصب القومى[1]

بقـــلم

ألفر جولد سمث Oliver Goldsmith

١٧٧٤ — ١٧٢٨

[ولد فى أيرلندة ، ودرس القانون فى جامعة دبلن ، ولـكنه تحول عنه إلى دراسة الطب فى جامعة إدنبرة وفى جامعتى ليدن ولوڤان ، ثم أخذ يطوف فى أوربا وليس معه إلا « جنيه واحد فى جيبه وقميص واحد على ظهره ومزمار فى يده ». ولما عاد إلى لندرة حاول أن يكسب قوته بالاشتغال بالتدريس ثم بالطب ، ثم بقراءة تجارب فى إحدى دور النشر . ومن سنة ١٧٦٠ أخذ ينشر مقالاته المعروفة « بالرسائل الصينية » ، ويصور فيها المجتمع الإنجليزى كما يراه الرجل الشرقى . وقد نشر هذه الرســائل مجموعة بعد عامين من ذلك الوقت .

ولجولد سمث شعر جيد ، وخير قصائده قصــيدة القرية المهجورة The Deserted Village والسائح The Traveller ، وله عدة مسرحيات جيدة ، ولـكن شهرته إنما تعتمد على مقالاته الأدبية ذات الأسلوب السهل والفـكاهة العذبة] .

١٤

يخيّـل إلىّ أن الإنجليز لا يقلون عن اليابانيين صمتاً ، ولـكنهم أكثر

---

(١) على لسان سائح صينى قدم إلى إنجلترا يصف أخلاق الإنجليز .

من أهل سيام زهواً وكبرياء . وقد كنت حين جئت بلادهم أعزو هذا التحفظ الذى يلازمهم إلى تواضعهم ، حتى وجدت أن منشأه الكبرياء . وشاهد ذلك أنك إذا نزلت أنت عن كبريائك وبدأتهم بالحديث أصبحت من معارفهم ، وإذا نزلت أكثر من هذا فتملقتهم كسبت صداقتهم واحترامهم . وهم يصبرون على الجوع والبرد والتعب ومتاعب الحياة كلها بلا جزع ، وكل ما للأخطار التى تواجههم من أثر فى نفوسهم أنها تثير فيهم روح الصبر والجلد ، وهم لا يجزعون من المصائب تحل بهم ، وكل الذى لا يطيقونه أن تحتقرهم . فالإنجليزى يرهب الاحتقار كما يرهب الموت ، وكثيراً ما يفر إلى الموت لينجو من ذل الاحتقار ، ويقضى على حياته إذا خيل إليه أن العالم لم يعد يعظمه .

وليس التعصب فى رأيى مصدر رذائلهم القومية فحسب ، بل هو مصدر فضائلهم القومية أيضاً ، فالإنجليزى ينشأ من صغره على حب مليكه ، وعلى أن يعده صديقاً له ، ولكنه ينشأ أيضاً على ألا يعترف بالسيادة لغير القوانين التى اشترك هو فى وضعها ، وهو يحتقر تلك الأمم التى يرضى أبناؤها أن يصبحوا كلهم عبيداً ليكون فرد من أفرادها حراً . والحرية يتردد صداها فى جميع مجالسهم ، وقد تجد آلافا منهم مستعدين لأن يضحوا بحياتهم فى سبيلها ، وإن لم تجد واحداً منهم يفقه لها معنى . على أن أحقر صانع منهم يرى من واجبه أن يكون الحارس الأمين لحرية بلاده ، وكثيراً ما تراه يعبر عن آرائه بلغة لو نطق بها عاهل عظيم ممن يدعون أنهم من نسل السماء لعدت دليلا على التفاخر والكبرياء .

واتفق أن كنت من بضعة أيام ماراً أمام أحد سجونهم فوجدتنى أقف

على الرغم منى لأستمع إلى حوار ظننت أن فيه بعض الطرافة . وكان الحديث يدور من خلال قضبان السجن بين مدين فى داخله وحمّال فى خارجه ألقى حملا عن عاتقه ليستريح ، وجندى واقف عند نافذة السجن . وكان موضوع الحديث أن إنجلترا مهددة بالغزو من ناحية فرنسا ؛ وبدا لى أن كل واحد من هؤلاء يحرص أشد الحرص على أن ينقذ بلاده من الخطر المحدق بها . وكان مما قاله السجين : « إن أشد ما أخشاه أن نفقد حريتنا ، فإذا ما فتح الفرنسيون بلادنا فماذا يكون مصير الحرية الإنجليزية ؟ أجل يا صديقى العزيز ! إن الحرية حق لكل إنجليزى ومن واجبنا أن نحافظ عليها وإن ضحينا فى سبيل ذلك بحياتنا ، ولن يسلبنا الفرنسيون هذه الحرية مهما فعلوا ، وسيفعلون كل ما يستطيعون للقضاء عليها . وهل يتصور الإنسان أن قوما هم أنفسهم عبيد يبقون على حريتنا إذا قدر لهم أن يغلبونا على أمرنا ؟ » وأجابه الحمال : « نعم عبيد . إنهم كلهم عبيد ، وليس منهم من يصلح لعمل إلا لحمل الأثقال ، وقبل أن أخضع لهم خضوع العبيد فلأتجرعن هذه الكأس مُترعة بالسم » . قال هذا وهو يشير إلى كأس كانت بيده « نعم لأتجرعنها سما زعافا إذا لم أتطوع للخدمة فى الجيش » . وأخذ الجندى الكأس من يد صديقه فى رعب شديد وصاح فى حماسة قوية : « ليس الذى نخشاه من هذا الغزو هو ما يصيب حريتنا على يد هؤلاء الأقوام بل ما يصيب ديننا ، نعم ديننا يا صديقى ، ثم أقسم قائلا : « وأقسم غير حانث — أو فليحرقنى الشيطان بناره — أن الفرنسيين سيقضون قضاء مبرماً على ديننا إذا وطئت أقدامهم أرضنا »

وقصارى القول أن كل رجل فى هذه البلاد يدعى أنه سياسى ، بل إن

من الجنس اللطيف نفسه من يجمعن بين قوة الجدل السياسى ودلال الحب ، وكثيراً ما يصرعن الناس بأسلحة غير عيونهن . والصحف فى هذه البلاد هى التى تنشر بين الناس شهوة الاشتغال بالسياسة كما تفعل الصحف فى بلاد الصين ، ولكن الإمبراطور فى بلادنا هو الذى يحاول أن يعلم شعبه الشئون السياسية ، أما فى إنجلترا فإن الشعب هو الذى يحاول أن يعلمها حكامه . ولا تظن مع هذا أن الذين يحررون هذه الصحف يعلمون شيئاً عن سياسة الدول أو طريقة حكمها ، إنهم يجمعون ما يكتبون فيها مما يوحى به إليهم متحدث فى أحد النوادى ، وهذا المتحدث نفسه قد تلقاه فى الليلة السابقة من شاب رقيع على مائدة الميسر ، وهذا الشاب قد استرق الحديث من بواب عظيم من العظماء ، والبواب قد أخذ معلوماته عن تابع من أتباع ذلك العظيم ، والتابع قد اختلق القصة كلها ليسلى بها نفسه فى الليلة السابقة.

ويبدو لى أن الإنجليز بوجه عام يحرصون على أن ينالوا احترام من يتحدثون إليهم أكثر من حرصهم على أن ينالوا حبهم ، وهذه الخلة تطبع مسراتهم ووسائل لهوهم بطابع من التكلف لا خفاء فيه ، فحديثهم مهما بلغ من المرح تبدو عليه مسحة من التعقل والرزانة تبعده عن اللهو البرىء . وإذا كنت فى جماعة منهم فإنك قلما تجد بينهم رجلا أبله أحمق تنفر من سخافته ، ولكنك قلما تجد تلك النشوة المنبعثة من المرح الذى يطرب الإنسان لساعته ، وإن كان هذا الطرب لا يدوم .

على أنهم يستعيضون عما ينقصهم من المرح بما فى طباعهم من أدب جم ، وقد تعجبون وتضحكون حين أمدح الإنجليز بأدبهم ، وأنتم الذين سمعتم غير هذا من المبشرين فى بكين Pekin ورأيتم ما يخالفه فى سلوك

التجار والبحارة منهم فى بلادنا . ولـكنى ما زلت أقول إن الإنجليز أكثر أدبا من جيرانهم ، وإن أهم ما يمتازون به من هذه الناحية مهارتهم العظيمة ، حين يصنعون الجميل ، فى أن يقللوا من أثره فى نفس من يصنعونه معه . ولست أنـكر أن غيرهم من الأمم يحبون أن يشعروا الغريب بفضلهم عليه ، لـكن الإنجليز يصنعون المعروف ويُظهرون عدم اهتمامهم بمـا صنعوا ، ويقدمون الخير وكأنهم يحتقرون ما قدموا .

ولقد حدث أن كنت من عشرة أيام مضت أسير بين رجلين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى فى طريقنا إلى إحدى ضواحى المدينة . وبينما نحن فى الطريق إذ أمطرتنـا السماء مطراً غزيراً ، ولم يكن لدى ما أتقيه به . أما صاحبىَ فقد كان مع كل منهما معطف كبير يستطيع أن يتقى به سيله الجارف . ورآنى الإنجليزى منكمشاً من رداءة الجو فقال لى : « ما هذا أيها الرجل ؟ مم تنكمش ؟ خذ هذا المعطف فلست فى حاجة إليه ، ولا أرى فيه فائدة لى ، ويسرنى أن أتخلص منه . وأراد الفرنسى أيضاً أن يكون له مثل هذا الفضل : فقال « أيها الصديق العزيز لم لا تدخل السرور على نفسى بأن تتقى المطر بمعطفى ؟ إنه يحفظنى منه كما ترى ، ولا أستطيع أن أتخلى عنه لأحد من الناس ، أما من كان مثلك أيها الصديق فإنى يسرنى أن أتخلى له عن جلدى نفسه ، إذا كان فى ذلك فائدة له »

ذلك ما يسمح به المقام الآن ، وفيه ما يدل على الأخلاق الإنجليزية بوجه عام . ولقد كان للطبيعة نفسها أثر فى نشأة هذه الصفات فيهم ، فالطبيعة خير هاد ومعلم ، وما علينا إلا أن نحسن اختيار ما تقدم لنـا من دروس لـكى نصبح بذلك أرشد الناس عقلا وأعظمهم حكمة .

نادى المؤلفين[1]

بقـــلم

الفر جولدسمث Oliver Goldsmith

١٥

يستفاد من الأخبار التى جاءتنى من موسكو أن القافلة لم تغادر الصين بعد ؛ وأنا الآن أكتب إليك مرة أخرى راجيا أن تصلك رسائلى الكثيرة دفعة واحدة ؛ وستجد فيها وصفا مفصلا لصفات الشعب الإنجليزى ، وإن لم تجد فيها صورة عامة لأخلاقه وأمزجته . ولو أن الرحّالة كلهم قد فعلوا ما أفعله أنا ، فأطلعونا على أحوال الشعوب مفصلة ، ولم يكتفوا بوصفها بعبارات عامة غامضة ، لكان فيما يفعلون الخير كل الخير لبنى الإنسان . ومن الواجب علينا إذا أردنا أن نعرف عقلية الشعوب أن يكون بحثنا عنها على نمط التجارب العلمية ، فإذا اتبعنا هذه الطريقة حصلنا على معلومات عن الأمم الأجنبية أدق وأصدق مما نحصل عليه الآن ، وعرفنا خطأ ما يصدره السياح عن هذه الأمم من أحكام .

ولقد زرت أنا وصديق مرة أخرى نادى المؤلفين ، فلما دخلناه وجدنا أعضاءه كلهم مجتمعين يتناقشون بأصوات مرتفعة ، ووقع نظرنا على الشاعر فى ثيابه الرثة وبيده مخطوط يحاول جهده أن يقنع زملاءه بالإصغاء إليه ؛ وكان الذى بيده هو الكتاب الأول من قصيدة حماسية أنشأها فى اليوم

---

(١) من رسائل السائح الصينى .

السابق لزيارتنا . وعارض الأعضاء معارضة شديدة فى هذا ، وقالوا إنهم لا يرون مبررا لأن يميز عضو من الأعضاء هذا التميز الخاص ، فى حين أن الكثيرين منهم قد نشروا مجلدات كاملة لم يطلع عليها أحد منهم ؛ وأصروا على الرجوع إلى القانون وهو صريح فى النص على الأحوال التى يسمح فيها بقراءة المؤلفات على هيئة النادى مجتمعة . وحاول الشاعر عبثا أن يحتج بما الكتابه من ميزة خاصة ، فقد كان يتحدث إلى جماعة أصمت آذانها عن سماع حججه بأجمعها . وجىء بقانون النادى وفتحه كاتب السر فوجد أنه ينص صراحة على أن « الشاعر أو الخطيب أو الناقد أو المؤرخ الذى يجرؤ بلا استئذان على أن يشغل وقت الجماعة فى قراءة كتاب له يفرض عليه أن يدفع نصف شلن قبل أن يفتح مخطوطه ، وأن يدفع فوق ذلك شلنا واحدا عن كل ساعة يقضيها فى قراءته ، على أن يوزع ما يجمع من ذلك على الأعضاء بالتساوى نظير ما يتحملونه من مشقة فى الإنصات إليه » ا . هـ

وبدا على الشاعر فى أول الأمر شىء من الخوف عندما سمع بهذه العقوبة فتردد وقتا ما بين دفع الغرامة وبين إقفال الكتاب ؛ ثم أدار بصره فى الحجرة فرأى فيها شخصين غريبين ، فغلب حب الشهرة على الفطنة وأصر على أن يتمتع بحقه كاملا غير منقوص . وعندئذ ساد الحجرة سكون رهيب وبدأ الشاعر يشرح الغرض الذى يرمى إليه فقال : « سادتى . ليست هذه القصيدة من الملاحم الشعرية العادية التى يفاجأ بها الناس فى بعض الأحيان ، والتى لا يكادون يطلعون عليها حتى يهملوا أمرها ؛ وكل الذى أرجوه منكم أن تكون نفوسكم منسجمة مع نفسى ، وأن تنصتوا إلىّ فى حماسة مماثلة للتى كتبت بها ملحمتى . إن القصيدة تبدأ بوصف غرفة النوم فى بيت

مؤلف ، والصورة مأخوذة فى جملتها من حجرتى الخاصة ، وأنتم تعرفون أيها السادة أننى أنا نفسى من أبطال الملاحم الشعرية » . قال هذا ووقف وقفة الخطيب ففخم صوته وأشـار بيده وأخذ ينشد قصيدته . وبعد أن تلا منها عشرين بيتا بلغت حماسته مبلغا لم يستطع معه أن يواصل القراءة فصاح قائلا : « ذلـكم يا سادتى ما وصفت به حجرة النوم ؛ ولو أنكم وازنتم بينه وبين ما وصف به ربليه Rabelais حجرة نومه لـكان وصفه هو السخف بعينه . ففى وصفى النغمة والمعنى والصدق والانسجام والطبيعة مجتمعة كلها فيما لا يزيد على عشر تفاعيل صغيرة » .

وشغله إعجابه بنفسه عن رؤية الجمع الذى كان يبدى له كل مظاهر الاحتقار بإشارات الرأس والعينين والـكتفين والضحك المـكتوم . ثم أقسم واحد منهم أنها لا تبارى ، وقال آخر إنها جميلة إلى حد لا يطاق ، وصاح ثالث فى حماسة شديدة : « ما أحبها إلى نفسى ! » ثم التفت الشاعر إلى الرئيس وقال له : « والآن يا سيدى الرئيس أحب أن أعرف رأيك » فأجابه بعد أن أخذ المخطوط من يده : «أقسم غير حانث — أو فلأغص بهذا القدح — أنهـا لا تقل شأنا عن أية قصيدة صادفتها فى حياتى » ؛ ثم طوى القصيدة ووضعها فى جيب المؤلف وقال « ويخيل إلىّ أنها ستشرفك كثيرا حين تنشر . إن الـكتاب يعرف من عنوانه ؛ فحسبنا هذا . لقد اكتفينا» . وحاول المؤلف مرتين أو ثلاثا أن يخرجها من جيبه ، ولـكن الرئيس كان فى كل مرة يمنعه من إخراجها حتى اضطر آخر الأمر على الرغم منه أن يجلس مكتفيا بالمديح الذى دفع ثمنه مقدما .

ولما سكنت هذه العاصفة القوية بدل أحد الجماعة موضوع الحديث بأن

قال إنه يعجب كيف تصل الغباوة بإنسان أيا كان إلى حد يبيح له أن يكتب الشعر فى هذا الوقت الذى لا يكاد النثر فيه يجزى كاتبه! ثم قال: « هل تصدقون أيها السادة أنى فى الأسبوع الماضى كتبت ست عشرة صلاة ، واثنتى عشرة فكاهة بذيئة ، وثلاث مواعظ ، ولم أنل على كل واحدة منها إلا نصف شلن ؟ وأعجب من هذا أيها السادة أن بائع الكتب الذى عقد هذه الصفقة قد خسر فيها ، مع أن موعظة واحدة كانت فى الأيام الخالية كفيلة بأن تجعلنى رئيس كنيسة ؟ أما الآن فإنا للأسف قد عدمنا التقوى والذوق وروح الفكاهة ، وأصدقكم القول أيها الإخوان أنه إذا لم يختتم هذا الفصل من السنة بأحسن مما بدأ به ، وإذا لم ترتكب الوزارة من الأغلاط ما نستطيع أن نتخذه موضوعا جديداً للطعن عليها ، فإنى سأعود إلى عملى القديم وأترك الاشتغال بالأدب » .

وأجمع أعضاء النادى كلهم على أن الفصل من أسوأ الفصول التى مرت بهم فى السنين الأخيرة ، وقال واحد منهم إن الأعيان بنوع خاص لم يكونوا فى وقت ما أشد تقتيرا مما هم فى هذا الفصل . « لقد كنت ألازم الواحد منهم كظله ، ومع ذلك فلم أفلح فى أن أحصل فى الأسبوع على اشتراك واحد فى كتابى ، ولست أعرف لهذا سببا ؛ ولقد أصبحت بيوت العظماء أمنع من الحصون على الحدود فى منتصف الليل ، ولم أعد أرى باب واحد منهم وقد فتح بعضه إلا رأيت فى الجزء المفتوح بوابا أو خادما فظا يعترض الداخل ؛ ولقد ذهبت بالأمس لأعرض على واحد منهم أن يشترك فى كتاب جديد ، ووقفت عند بابه طوال الصباح ، فلما رأيته يهم بركوب عربته وضعت الطلب بنفسى فى يده مطويا فى صورة خطاب موجه منى إليه فألقى

نظرة سريعة على العنوان ، ولما رآه مكتوباً بخط لا يعرف صاحبه ناوله إلى خادمه الخاص ، وفعل به هذا الخادم ما فعله به سيده ، فأعطاه للبواب ، وأخذه البواب عابسا ونظر إلىّ غاضبا وأعاده إلىّ من غير أن يفتحه » .

وصاح رجل صغير الجسم بلهجة غريبة : « ألا فليُلق الأعيان كلهم فى الجحيم . لقد عاملونى من وقت قريب معاملة دنيئة ، وسأقص عليكم يا سادتى أنه من زمن غير بعيد عاد رجل سرى عظيم من أسفاره فجلست إلى مكتبى :

وهززته بقصيدة لو أنها تليت على الصخر الأصم لأغدقا[1]

فلقد صورت فيها البلاد كلها تستقبله عند عودته إلى بلده ، ولم أنس أن أذكر ما أصاب الأدب فى إيطاليا وفرنسا من خسارة جسيمة ، بعد أن سافر منهما ؛ وكنت أظن أن أقل ما سأناله منه هو تحويل على أحد المصارف ، ولففت القصيدة فى غلاف مذهب وأعطيتها لخادم وسيم من خدم النبيل ليوصلها إليه ، بعد أن نفحته بآخر ربع جنيه كان معى . ووصلت القصيدة إليه سالمة ، وغاب عنى الخادم أربع ساعات كنت فى أثنائها أنتظره على أحر من الجمر ، ثم عاد إلىّ يحمل خطابا من الرجل العظيم يبلغ طوله أربعة أضعاف قصيدتى . وفى وسعك أن تتصور ما كان يجيش فى صدرى من الأمل وأنا فى انتظار عودة الرسول ، ولم أكد أراه حتى اختطفت منه الرسالة بيد مرتجفة ، ووضعتها أمامى مغلقة زمنا ما ، كنت فى أثنائه أفكر فيما تحتويه من ثروة طائلة ، ثم فتحتها فماذا تظنون أيها السادة أنى

(١) فى الأصل الإنجليزى « تستدر اللبن من العصفور » والبيت من شعر المرحوم حافظ بك إبراهيم من قصيدة له يحيي بها هلال العام الهجرى الجديد عام ١٣٢٨

وجدت فيها ؟ أقسم غير حانث أن الذى أرسله إلىّ النبيل ثمنا لقصيدتى لم يكن تحويلا على مصرف ، بل ست قصائد كل واحدة منها أطول من قصيدتى ، أرسلها أصحابها إليه يهنئونه مثلى بسلامة الوصول » .

وصاح عضو آخر من أعضاء النادى كان قد بقى إلى ذلك الوقت صامتا لا ينبس ببنت شفة : « إن هؤلاء الأعيان لم يخلقوا إلا ليفسدوا علينا أمرنا نحن المؤلفين ، وهم لا يقلون مضايقة لنا عن رجال الشرطة . وسأقص عليكم أيها السادة قصة أؤكد لكم أنى صادق فيها . لما أخرجت كتابى الأول كنت مدينا لخياطى بثمن حلة ، وليس هذا يا سادتى بالشىء الجديد على المؤلفين كما تعلمون ، وليس هو مقصورا على وحدى . وسمع الخياط أن كتابى قد لقى رواجا عظيما ، فأرسل إلى يطالبنى بدينه ، وأصر على أن يتقاضاه من فوره . وكنت فى ذلك الوقت غنيا بشهرتى لأن كتابى قد انتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم ، ولكنى كنت فقيرا فى المال ، ولم أستطع أن أؤدى الدين ، ورأيت من الحكمة ألا أغادر غرفتى لأنى فضلت سجنا أختاره لنفسى فى دارى عن سجن يختاره لى الخياط فى خارجها . وبذل رجال الشرطة كل ما لديهم من حيلة لإخراجى من معقلى الحصين ، وحاولوا أن يخدعونى بقولهم إن رجلا من الأعيان يريد أن يتحدث إلىّ فى الحانة المجاورة لمنزلى ، وجاءونى برسالة عاجلة من عمتى التى تسكن الريف ، وأرسلوا إلىّ من يخبرنى أن صديقا عزيزا يحتضر وأنه يريد أن يودعنى الوداع الأخير ، ولكن ذلك كله لم يجدهم نفعا ، وذهبت كل جهودهم أدراج الرياح . لقد كنت كالأصم ، فاقد الإحساس ، متحجر

القلب كالصخر ، ولم يجد رجال الشرطة سبيلا للتأثير فى ، وبذلك احتفظت بحريتى بملازمة حجرتى .

وأفلحت فى هذا أسبوعين كاملين ، وفى صباح أحد الأيام جاءتنى رسالة كريمة من نبيل واسع الثراء عظيم الجاه ، يقول فيها إنه قرأ كتابى ، وإنه شديد الرغبة فى رؤية مؤلفه ، وإن لديه مشروعا قد يعود على بالخير الكثير . وقرأت الرسالة بتدبر وإمعان ، ولم أتبين فيها غشا أو خداعا ، لأن الورق الذى كتبت عليه كان مذهب الأطراف ، وقيل لى إن حاملها رجل أنيق تعرف فى وجهه نضرة النعيم . ويشهد الله أن قلبى كاد يطير فرحا حين عرفت مالى من شأن خطير ، وتصورت ما سوف ينتظرنى من سعادة ، وأخذت أمتدح ذوق هذا المهد الذى لا يضن على العباقرة أمثالى بالتشجيع ، وأعددت خطبة رائعة تحوى ثناءً عاطراً على المنعم ، وثناء على نفسى أقصر منه وأكثر تواضعاً . وركبت فى صباح اليوم التالى عربة لأصل بها إليه فى الموعد المحدد ، وأمرت السائق أن يتجه إلى الشارع وإلى البيت اللذين كتبا فى خطاب النبيل . واحتطت للأمر فأغلقت شباك المركبة لأحجب نفسى من أنظار المتطفلين ، وخيل إلىّ من عظيم أملى أن المركبة لا تسير بالسرعة الواجبة . وأخيراً حلت الساعة المرتقبة التى تصل فيها العربة إلى آخر رحلتها ، ففتحت النافذة لكى ألقى نظرة على قصر النبيل الفخم وموقعه . ولكننى رأيت ، ويا هول ما رأيت ! أننى لست فى شارع راق جميل بل فى زقاق ضيق حقير ، ولم أر بابا لدار نبيل بل باب سجن احتياطى . فعرفت أن السائق كان طوال الوقت يسوقنى إلى باب السجن لا إلى باب بيت الشريف ، وأبصرت الشرطى المتجهم الوجه مقبلا نحوى ليلقى القبض علىّ »

وبعد فهذه فئة من أهل هذه البلاد أبعث إليكم بوصفها ، وقد ترون أن الحوادث التي رويتها ليست بذات شأن ، ولكن الفيلسوف لا يرى أن حادثة مهما كانت تافهة غير جديرة بعنايته ، فهو يجد فائدة ولذة في الحوادث التي لا يعنى بها سائر الناس لأنهم يظنونها حقيرة ، غير جديرة بالعناية ، وفي وسعه أن يصل بدراسة عدد كبير من هذه الحادثات الفردية الخاصة العديمة القيمة في نظر الناس إلى أحكام عامة . وهذا على ما أعتقد هو الذي يبرر ما أرسله إلى الصين من وصف أخلاق أهل هذه البلاد وعاداتهم وسخافاتهم ؛ وهي — وإن كانت صغيرة تافهة في ذاتها — أصدق دلالة على خصائص هذا الشعب من قصص معاهداته وبلاطه ووزرائه ومفاوضاته وسفرائه .

أدب الحديث

بقلم

وليم كوبر William Cowper

١٧٣١ — ١٨٠٠

[كان فى حداثة سنه ضعيف الجسم شديد الحساسية ، وكانت أيام دراسته كلها بؤساً ومرضاً . وقد عرضت عليه فى عام ١٧٦٣ وظيفة كتابية فى مجلس اللوردة فرفضها لحيائه الشديد وخوفه من الظهور ؛ وأثر ذلك فى نفسه ، وقوى هذا الأثر بسبب شكوكه الدينية ، فاضطربت قواه العقلية وحاول الانتحار . وظلت نوبات الجنون بعدئذ تنتابه من حين إلى حين طوال حياته ؛ وكانت الست السنين الأخيرة منها جنونا متواصلا . ونشر كوبر الجزء الأول من ديوان شعره فى عام ١٧٨٢ ، ثم ترجم أشعار هوميروس إلى الإنجليزية . وشعره مزيج من القديم والحديث ، ويمتاز بما فيه من فكاهة وشعور رقيق ونزعة أخلاقية سامية . ولكن الكثير منه تسرى فيه روح الحزن والكآبة الناشئة من حياة العزلة والاضطراب العقلى . أما نثره فيشمل عدة مقالات ورسائل بليغة سهلة جميلة ، وهى من خير ما كتب فى اللغة الإنجليزية] .

١٦

مثلت من عهد قريب فى أحد ملاهى باريس مسرحية لاقت نجاحا كبيراً وأعيد تمثيلها عدة ليال متوالية ؛ وكان من أشخاصها رجل

إنجليزى أخص صفاته أنه لا يتقن فن الحديث ، فلا يكاد كلامه كله يتعدى تكرار هذه التحية المألوفة « كيف حالك ؟ » . والحق أن الإنجليز كثيراً ما يوصفون بأنهم قوم كتومون متحفظون ذوو مزاج نكد ، فى حين أن الفرنسيين الثرثارين كثيراً ما يوصفون بأنهم يتقنون فن الحديث إتقانا لا يجاريهم فيه غيرهم من الأمم ؛ فالإنجليزى كالساعة تقف إذا لم تدر لولبها لتملأها باستمرار ؛ أما الفرنسى فكالمنبه الذى يدق على الدوام . على أننا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقر أن الإنجليز يختلفون فى طريقة حديثهم باختلاف أمزجتهم . أما الأمة الفرنسية فتتحدث كلها بطريقة واحدة، لا فرق فى ذلك بين خاصتها وعامتها ، وإنك لترى أحيانا رجلين من الحلاقين الفرنسيين يخاطب أحدهما الآخر فى الطريق بطلاقة اللسان وحركات اليد والوجه التى يتحدث بها رجلان من رجال البلاط فى قصر التويلرى[1] .

ولست أريد أن أضع قواعد خاصة يراعيها كل متحدث ، وحسبى أن أشير إلى بعض الأغلاط الشائعة فى أحاديث الناس وسلوكهم ، وهى التى تجعل صحبة نصفهم على الأقل مدعاة للملل والسآمة ، بدل أن تكون من أسباب السرور والبهجة . ومما يؤسف له أننا لا نجد الحديث فى الأوساط التى كنا ننتظر أن يبلغ فيها غاية الجودة والإتقان ، أى بين أفراد الطبقات الراقية . وسبب ذلك أنهم يصرفون كل وقتهم فى لعب الورق ، حتى قال لى بعضهم إن كتابنا المحدثين لا يفلحون فى ابتكار الأحاديث التى يحتاجونها فى

(١) قصر التويلرى مسكن ملوك فرنسا ؛ وقد شهد كثيراً من مآسيهم . هاجمه الشعب فى أثناء الثورة الكبرى وفى أثناء حوادث ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١ وانتهى عهده من حيث هو مسكن للملوك بعد موقعة سيدان ، وتوجد فى مكانه الآن حديقة التويلرى المشهورة .

مسرحياتهم ، لأن الطبقات العليا من الأمة لا تكاد تجتمع إلا على مائدة الميسر ، ولأن حديثها كله يدور بطبيعة الحال حول أفانين اللعب وخداع اللاعبين ، ومن الحِكَم المأثورة لدى هذه الطائفة من الناس ولدى السكيرين أن الحديث يتلف الصحبة .

وليس فى الناس من لا يحاول بكل ما فى طاقته أن يكون لطيفاً محبوباً فى المجتمعات ؛ ولكن كثيراً ما يحدث أن الذين يبذلون قصارى جهدهم ليكونوا « نجوماً ساطعة فى سماء الحديث » يَعْدون فيه طورهم . ومن واجب الإنسان مهما يكن ناجحاً موفقاً فى حديثه ألا يستأثر بالحديث لنفسه ؛ فعلينا أن نجعل الحديث كالكرة الصغيرة تتلقفها الأيدى يداً بعد يد ، لا ككرة القدم ندفعها أمامنا دفعاً . ومن واجبنا كذلك أن نجعل حديثنا ملائماً لأحوال من نتحدث إليهم فلا ننطق باليونانية فى حضرة السيدات ولا نتحدث عن آخر نمط من الأزياء فى حضرة قضاة الريف .

وما من شيء يُظهر الحديث كله بمظهر السخف البالغ أكثر من بعض الصفات الخاصة التى يسهل اعتيادها ويصعب التغلب عليها أو التخلص منها ؛ وسأحاول أن أظهر هذه السخافات بمظهرها الحقيقى . وذلك بأن أذكر منها ما هو أكثر من غيره شيوعاً بين الناس . وسأبدأ بذكر أولئك الذين أُطْلِقَ عليهم اسم المتأنقين والمصعّرين خدودهم الذين لا ينطقون بكلمة إلا ومعها حركة من حركات اليد أو الوجه ، فهم يهزون أكتافهم علامة على الرضا ، ويثنون رقابهم دليلا على الرفض . ويلوون أشداقهم ليظهروا الغضب ، ويضربون الأرض بأرجلهم إظهاراً للسرور ، أولئك فى الحقيقة ممثلون هازلون وليسوا متحدثين ، أَخَذوا قواعد البلاغة عن اللاعبين

على الحبال ، ويجب أن يحكم عليهم بأن يقضوا حياتهم فى معارض الصم ، لا يتكلمون إلا مع صورهم فى المرآة ، وأن يحشروا هم والبسَّامون المتنطعون الذين يغيرون معارف وجوههم حسب ماينطقون به من الألفاظ . ومن هذا الصنف أيضاً المقلدون الماجنون الذين لا يفتئون يحاكون أصوات من يعرفون من الناس وحركاتهم أسوأ تقليد . وما أشبههم فى هذا بصغار المصورين الذين يضطرون فى كثير من الأحيان أن يكتبوا اسم ما يصورون لكى يعرف الناس حقيقته .

هذه طائفة من الناس فصاحتهم كلها محصورة فى حركات أجسامهم ، وهم يتكلمون أكثر ما يتكلمون بأيديهم وأرجلهم . ثم تأتى بعدهم طائفة أخرى هى طائفة المتحدثين المحترفين ؛ وتشمل هذه الطائفة أولاً المؤكدين الذين يعصرون ، ويضغطون ، ويدفعون من أفواههم ، كل حرف من حروف ألفاظهم ، بكل ما أوتوا من نشاط وقوة ؛ وأعظم ما يمتاز به أولئك الخطباء وضوح ألفاظهم وقوة تعبيرهم ، وأهم ما يؤكدونه من الألفاظ مِنْ وأَلْ وواو العطف وأمثالها من الكلمات الخطيرة . ويخيل إلى سامعهم أنهم يجدون مشقة كبيرة فى إخراجها من حلوقهم ودفعها فى آذان المستمعين إليهم . أولئك يجب ألا يسمح لهم إلا بحقن آذان الصم — إذا جاز هذا التعبير — من خلال سماعات . على أنى لا أنكر أيضاً أن ما يسوءنى من هؤلاء يسوءنى أيضاً من الهامسين المُسرِّين الذين يظنون أن كل من يعرفونهم من الناس صم ، فهم إذا شاءوا أن يحدثوك اقتربوا منك حتى كأنهم يريدون أن يقيسوا أنوفهم بأنفك ؛ وكثيراً ما يؤذونك برائحة أفواههم الكريهة ؛ ومن رأيى أن يؤمر هؤلاء

بألا يُحَدِّثوا أحداً إلا عن بُعد ومن خلال بوق .

أما الفاكهون الذين لا ينطقون إلا بالظريف من الأقوال ، والصَّافرون المُنَغِّمون الذين لا يُفْصِحون قط ، فني وسعنا أن نجمعهم كلهم فى مكان واحد ؛ ولا ضير علينا فى أن نضم إليهم الصاخبين الذين إذا سألوك عن صحتك نادوك بصوت الدلالين ؛ وتبقى بعد ذلك البَقَاقة وهى صفة قد يطيقها الإنسان إذا خرجت من حناجر اعتادت لطف الحديث ورقة الصوت ، وقد تكون أشبه بالموسيقى إذا كان صاحبها جميل الوجه ، أو إذا نطق بها لسان أنثى . أما ذو الصوت الخشن والوجه الغليظ فالسخف إذا صدر منه يؤذى السمع كما يؤذيه النشاز من الأصوات . ولقد تحدثت فى مقال قبل هذا عن الحَلاَّقين الثرثارين ، وسأتركهم وشأنهم هنا ، وحسبى أن أشير إلى أنصاف الحلاقين الذين يُقَطعون ، ويبترون ، ويفتتون أعمانهم فينطقون ببعضها ويخفون بعضها الآخر . أما الساخرون المتهكمون الذين يبدلون خلق الله فيسمون الرجل كرنبة وسرطانا وجرواً وسمكة ، فيجب ألا يؤذن لهم بالجلوس مع الناس إلا ومعهم شُرَّاح يفسرون أقوالهم .

ولست أريد أن أستنفد صبر القارئ بتعداد جميع مساوئ الحديث وعيوبه ، ولن أطيل الكلام بنوع خاص على المتحذلقين الذين يؤكدون أتفه الحقائق ، ولا يتكلمون إلا جملا طنانة رنانة ، واللاأدريين(١) الذين لا يفتئون يقولون إنهم لا يعرفون كم الساعة ؟ وهل تمطر السماء أو لا تمطر ، ومتى يكمل القمر ؟ والشراح الذين ينطقون بالغامض من الألفاظ ثم يتبعونها بشرحها فيقولون بعد كل عبارة « أقصد ولا أقصد » . وآخر

(١) لا نعنى بالطبع طائفة الفلاسفة المعروفة بهذا الاسم .

من أذكرهم الصامتون الذين يخشون أن يفتحوا أفواههم لئلا يصابوا بالبرد ، والذين يطيعون أمر الإنجيل بنصه فلا يزيدون فى حديثهم على قول نعم و لا .

وبعد فإن الاتصال المعقول بين الناس عن طريق المحادثة من أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان الأعجم ؛ ولهذا كان من واجبنا أن نستخدم هذه الموهبة على خير وجه ، فنجعل أعضاء النطق أداة للتفاهم ، ونحاذر أن نتخذها أسلحة للرذيلة أو أدوات للسخف ، ونبذل كل ما فى وسعنا للتخلص مما يتصل بالحديث من عادات حقيرة تحط من قدر هذه الميزة العظيمة التى اختص بها الإنسان .

ويظن بعض الفلاسفة أن الطيور والحيوانات نفسها تتفاهم فيما بينها بالأصوات التى تخرج من أفواهها ، وإن لم يكن فى وسعها أن تجعل من هذه الأصوات ألفاظا واضحة ؛ وهم يقولون إن للكلاب والقطط وأمثالها لغات مختلفة خاصة بها ، شأنها فى ذلك شأن الأمم سواء بسواء ، ويؤكدون أن البلبل الإيطالى يدرك نغمات البلابل فى تلك البلاد ، كما تدرك اذن الموسيقيين الإيطاليين موسيقى بلادهم ؛ ويقولون أيضا إن خنازير وستفاليا[1] تقبع من أنوفها كما ينخر سكان ألمانيا العليا من أنوفهم ، وإن الضفادع فى المستنقعات الهولندية تنق نقيقا لا يقل فى وضوحه عن غمغمة أهل الأقاليم المنخفضة من تلك البلاد .

وسواء أكان هذا صحيحا أم لم يكن فإن من حقنا أن نعد أولئك الذين لا يخضعون ألسنتهم لسلطان عقولهم ، ولا يتحدثون كما يتحدث بنو الإنسان ، أشبه الناس بالحيوان . فالشبه الكبير بين الثرثارين والقردة ،

(١) إحدى مقاطعات ألمانيا .

والهــاذرين والببغاوات ، أوضح من أن يخفى على أحد . والناخرون والمدمدمون أشبه الناس بالخنازير ، والساخرون أشبههم بصغار الـكلاب التى تـكشف عن أسنانها ولا تعض بها ، والصخابون كالقطط البرية لاتطيق أن يُمْسَح شعرها باليد وتموء إذا صادفت شيئا يَسُرُّها ، والشاكُون المتذمرون بوم ناعق ؛ والنقاد بوجه عام أفاع سامة يسرها صفيرها ؛ وأولئك الذين حفظوا عن ظهر قلب بضع عبارات فنية لا يفقهون لها معنى ، ويردِّدُونها فى كل مناسبة هم واللقالق سواء . أما أنا الذى أُسْمعت صوتى أهل هــذا البلد طوال السنين الثلاث الماضية ، فقد أكون أشبه بالديك ، ولـكننى إذا ذكرت لهم بأنهم سيسمعون منى آخر صيحة بعد أسبوعين من هذا اليوم ، فإنى أرجو أن يعدونى كالبجعة[١] التى يقولون عنها إنها تغنى بصوت شجى فى آخر ساعة من ساعات حياتها على هذه الأرض .

---

(١) من الاعتقادات الشائعة أن البجعة إذا دنا أجلها انتحت ناحية وأخذت تغنى بنغمة شجية حتى تموت . (المعرب)

أصل الشـــواء

بقـــلم

تشارلس لام Charles Lamb

١٨٣٤ — ١٧٧٥

[ولد من أبوين فقيرين فى مدينة لندن ، وكان طول حياته صديقا للشـاعر الـكبير كولردج ، وقد وصـفه هذا الصديق بأنه « غلام ظريف محبوب ، مرهف الحس ، دقيق الملاحظة فى لسانه لـكنة » . وقضى لام عدة سنين كاتبا فى المركز العام لشركة الهند الشرقية ، وبقى فيه حتى اعتزل الخدمة سنة ١٨٢٥ وخصص له معاش يكفيه . وفى عام ١٧٩٦ حدثت فى الأسرة مأساة كان لها أعظم الأثر فى حياته . ذلك أن أخته ميرى (وهى التى يرد ذكرها فى مقالاته باسم ابنة العم بردجت Cousin Bridget) انتابتها نوبة فجائية من الجنون قتلت فيها أمهـا وجرحت أباها . ومن ذلك الحين قرر تشارلس أن يكرس حياته كلها للعناية بأخته ، وألا يتزوج قط . وكانت النوبات تعاود أخته من حين إلى حين ، فـكان يعنى بها بنفسه ، ويأخذها إلى المستشفى بيده . وأثر فى لام موت صـديقه كولردج فاعتلت صحته ، وسقط على الأرض وهو سائر فى الطريق ، فجرح فى وجهه وتسمم الجرح فمات .

ولام ذو مقام ممتاز فى النقد وإنشاء المقالات الأدبية ، ولا يضارعه من كتابها إلا أدسن . على أن أدسن نفسه ينقصه الشعور المرهف ورقة

الحاشية اللذان يمتاز بهما لام . وهو يدخل شخصيته فى كتاباته ، ولا يخفى على القارىء شيئا من عيوبه الخلقية والجسمية . ويقترن اسم لام باسم كتابه الذائع الصيت « قصص من شيكسپير » ، وقد اشتركت معه فى كتابتها أخته ميرى ، فكتب هو المآسى وكتبت هى الملاهى . لكن مقامه فى الأدب يقوم على مقالات إليا Essays of Elia التى نشرها تباعا فى مجلة لندن The London Magazine ، والتى جمعت بعد ذلك فى مجلدين . و «إليا» اسم زميل للام فى المركز العام لشركة الهند ، انتحله لام لنفسه ليوقع به مقالاته] .

١٧

جاء فى أحد الكتب الصينية المخطوطة ، وهو كتاب تفضل علىّ صديقى م . بقراءته لى وشرحه ، أن الناس كانوا فى السبعين ألف عام الأولى من حياتهم على ظهر الأرض يأكلون اللحم نيئا ، يقتطعونه من الحيوان حيا بأظفارهم ، أو ينهشونه بأسنانهم ، كما يفعل سكان الحبشة فى هذه الأيام[١] . وقد أشار إلى هذا العهد إشارة غير خفية فيلسوفهم الكبير كنفيوشيس فى الفصل الثانى من كتابه المسمى «تقلبات الدنيا» حيث يطلق على العصر الذهبى من عصور الصين إسم (شوفانج) ومعناه « عيد الطباخين » . ويقول المخطوط بعد ذلك إن الصينيين كانوا أول من عرف الشواء ، وإن ذلك كان بالطريقة الآتية :

خرج هوتى راعى الخنازير ذات صباح إلى الغابة كعادته فى كل يوم ، ليجمع منها ثمار البلوط ويطعم بها خنازيره ، وعهد بحراسة كوخه إلى ولده

(١) لا حاجة إلى القول بأن أهل الحبشة لا يفعلون ذلك .

الأكبر بوبو ، وهو غلام بليدٌ مولع باللعب بالنار شأن سائر الغلمان فى سنه .
وبينما كان بوبو فى عبثه إذ تطاير بعض الشرر وأشعل النار فى كومة من الكلأ الجاف ، وامتدت النار من الكومة إلى الكوخ الحقير ، فلم تكن إلا ساعة من زمان حتى أتت عليه كله . ولم يكن احتراق المسكن أمرا ذا بال ، فقد كان كوخا حقيرا لا يختلف فى شيء عما كان يقيمه الناس قبل عهد الطوفان ؛ أما الأمر الخطير حقا فهو أنه كان إلى جوار الكوخ حظيرة للخنازير بها تسعة من صغارها الجميلة ، ولدتها أمها من زمن قريب ؛ واحترقت الحظيرة بما فيها عند احتراق الكوخ ؛ وكان احتراقها كارثة عظيمة ، لأن الخنازير الصينية مشهورة فى جميع أنحاء العالم من أقدم العصور بجودة لحمها ولذة طعمه . وسُقِط فى يد الصبى واستولى عليه الخوف ، ولم يكن ذلك لاحتراق العشة ، فقد كان فى وسعه هو وأبيه أن يعيدا بناءها فى ساعة أو ساعتين بقليل من الأغصان الجافة . لكن الذى روعه وأذهب عقله هو احتراق الخنازير . وبينما هو يفكر فيما عسى أن يقوله لأبيه ، ويضرب يدا بيد فوق الدخان المتطاير من بقايا أحد هذه الضحايا المحترقة ، إذا برائحة طيبة لم يشم مثلها من قبل ، تدخل فى خياشيمه . ولم يعرف الصبى مصدر هذه الرائحة ، وكل ما كان واثقا منه أنها ليست صادرة من العشة المحترقة لأنه لم يشم رائحة مثلها من قبل ، فلم تكن هذه أول مرة حرقت فيها العشة ، بل كان احتراقها حادثا كثير الوقوع بسبب إهمال هذا الصبى المشئوم . كذلك لم تكن تلك الرائحة شبيهة برائحة عشب أو زهر أو نبات معروف . وأحس الصبى فى الوقت نفسه بلعابه يسيل ويبلل شفته السفلى ؛ فحار فى أمره ولم يدر ما يفعل ، ثم انحنى على أحد

الخنازير يريد أن يعرف هل لا تزال فيه بقية من حياة ، فاحترقت فى أثناء ذلك أصابعه ، وأراد أن يبردها فوضعها فى فمه كما يفعل سائر المتوحشين من بنى الإنسان .

وكانت أصابعه قد لصقت بها قطع صغيرة من الجلد المحترق ، فذاق طعم الشواء لأول مرة فى حياته — بل فى حياة العالم كله لأن أحدا لم يكن ذاق طعمه من قبله — ، وانحنى على الخنزير مرة ثانية وقلبه بيديه ؛ ولم تحترق أصابعه فى هذه المرة كما احترقت من قبل ، ولكنه لحسها للمرة الثانية بحكم العادة . ولاحت الحقيقة أخيراً لخياله البليد ، فأيقن أن الرائحة صادرة من الخنزير ، وأن الطعم الشهى طعم جلد الخنزير ، فاندفع بكليته ينتهب اللذة الجديدة انتهابا ، وأخذ يقتطع بكلتا يديه كتلا كبيرة من جلد الخنزير ولحمه ، ويلقيها فى فمه على عجل . وأدركه أبوه فى هذه الساعة وبيده عصا ضخمة ، فرأى ما حل بعشته وخنازيره ، فهوى بعصاه على كتفى ولده الخبيث ، وأخذ يكيل له الضربات تباعا . ولكن بوبو لم يلق باله إليها كأنها كانت ذباباً يتطاير على كتفيه . ذلك بأن اللذة التى كان يشعر بها فى أعماق بطنه جعلته لا يحس بشىء مما يصيب هذا الجزء الأعلى من جسمه ؛ وظل والده يضربه ، وظل هو يلتهم لحم الخنزير حتى لم يبق منه شىء . وعندئذ فقط أدرك ما كان حوله ، ودار بينه وبين أبيه الحديث الآتى أو ما يشبهه :

— ما هذا الذى تلتهمه أيها الغلام الخبيث ؟ لقد حرقت بعبثك هذا ثلاثة بيوت ، وكان جديرا بك أن تُشْنَق عقابا لك على فَعلتك ، ثم لم يكفك هذا بل أخذت تأكل النار وتأكل معها هذا الشىء الذى لا أعرفه . أجب وقل لى ماذا كنت تفعل ؟

— أي أبي ! الخنزير ! الخنزير !بحقك أقبل لتعرف بنفسك ما أفعل ! ألا ما أشهى لحم الخنزير ! »

وارتاع هوتى حين سمع كلام ولده ، وأخذ يسبه ويسب نفسه لأنه جاء إلى هذا العالم بولد يأكل لحم الخنزير المحترق .

وغلب على بوبو نهمه فجر من النار خنزيراً آخر ومزقه شطرين ، ووضع أصغرهما فى يدى هوتى وصاح به « كل ! كل! كل الخنزير المحروق يا والدى ! ذق طعمه ! يا رباه ما ألذه ! » إلى غير هذه من العبارات الوحشية التى كان يقولها وهو يدفع اللحم إلى معدته دفعا غير عابئ بما قد يصيبه منه .

واضطرب هوتى وهو يقبض بكلتا يديه على لحم الخزير ، وارتعدت فرائصُـه من شدة الرعب ، وأوشك أن يقتل ولده جزاءً له على هذا الفعل الذميم الذى لا تفعله إلا الوحوش الضارية . وبينا هو يهم بذلك ، إذا به يحس بأصابعه تحترق من حرارة لحم الخنزير ، كما احترقت أصابع ولده من قبل . وعالجها بما عالجها به« بوبى» ، فذاق طعم الجلد المشوى ، ولـكنه لوى وجهه وتصنع الغضب ، وإن كان ذلك لم يقلل من شـعوره بلذة هذا الطعام الجديد .

وقصارى القول أن الولد وأباه جلسا معاً يلتهمان لحم الخنازير المحترقة ، ولم يغادرا مكانهما حتى أتيا على كل ما كان باقياً منها .

وحَـذر هوتى ولده من إفشاء السِّـر لأن الجيران إذا علموا بأمرهما سيرجونهما بالحجارة كما ترجم الشياطين . وهل هناك من الأعمـال ما هو أسوأ من التفـكير فى تغيير طبيعة اللحم الطيب الذى أرسله الله للناس ؟ لـكن أخباراً غريبة أخذت مع ذلك تذيع ، فقد رأى الناس أن عشة هوتى كانت تحترق أكثر من ذى قبل ، فكانت النار تشتعل فيها كل يوم ، تارة

فى النهار وتارة فى الليل ، وكانت الحرائق تزداد كلما ولدت فيها خنازير جديدة وأغرب ما فى الأمر أن هوتى لم يعد يعاقب ولده على إحراق عشته ، بل كان يزداد فى كل يوم حباً له وعطفاً عليه . وأخيراً أخذ جيرانه يراقبونه حتى كشفوا السر الرهيب ، وسيق الوالد وولده إلى ساحة القضاء فى بكين ولم تكن إذ ذاك مدينة كبيرة . وشهد الناس عليهما بارتكاب الجريمة ، وجىء بالطعام الكريه نفسه أمام المحكمة ، وأوشك المحلفون أن ينطقوا بإدانتهما ، ولكن كبيرهم طلب قطعة من الخنزير المحترق الذى يحاكم المجرمان لأكله . وأعطى اللحم وأخذ يقلبه ، وأخذ المحلفون يقلبونه معه ، واحترقت أصابعهم كما احترقت أصابع بوبى وأصابع والده ، وعالجوها بنفس العلاج الذى أوحت به إليهم غريزتهم . وما كان أشد دهشة القضاة كلهم ودهشة سكان المدينة والأجانب ومراسلى الصحف والحاضرين جميعاً ، حين نطق المحلفون بالحكم من غير أن يتركوا ساحة المحكمة أو يختلوا للمداولة ، فإذا هو يقضى ببراءة المتهمين رغم ثبوت الجريمة عليهما بالأدلة القاطعة .

وكان القاضى رجلا ذكياً فغض النظر عما فى هذا القرار من مخالفة صريحة للعدالة ؛ ولما انفضت الجلسة خرج من المحكمة وأخذ لنفسه كل الخنازير التى استطاع أن يحصل عليها بماله أو بجاهه . ولم تمض على ذلك إلا بضعة أيام حتى شوهد بيت فضيلة القاضى نفسه يحترق ؛ ولم يبق الأمر بعد ذلك سراً مكتوماً ، وانتشرت الحرائق فى كل مكان فى المدينة ، وارتفعت أثمان الخنازير وأثمان الوقود فى جميع أحيائها ، وأفلست شركات التأمين واحدة بعد واحدة لكثرة ما نشب فى المدينة من الحرائق ، وأقفلت أبوابها ؛ وقلت متانة البناء يوماً بعد يوم حتى خشى الناس أن ينعدم هذا الفن من

العالم . واعتاد السكان إحراق المنازل ، وظلت هذه العادة قائمة حتى جاء حكيم عظيم — كما يقول الكتاب المخطوط — من أمثال لُكْ الفيلسوف الإنجليزى الكبير ، فعرف أن لحم الخنازير ولحم سائر الحيوان يمكن أن يطهى — أو يحرق كما هو النص بالضبط — من غير حاجة إلى إحراق البيت كله . وفى ذلك الوقت اخترعت آلة للشواء ساذجة ، ثم اخترعت بعد مائة عام أو مائتين من ذلك الوقت طريقة الشيّ بالخيط أو السفود ؛ ولست أعرف بالضبط فى عهد أية أسرة من الأسر الصينية كان اختراعها . ويعلق المخطوط على ذلك بقوله: إن أنفع الفنون وأبسطها فى الظاهر تنتشر بين الناس بهذه الخطى البطيئة

هذا ما يحتويه الكتاب المخطوط ، ولست أدعى أنى واثق من صدق روايته فى جملتها وتفاصيلها ، ولكن الذى لا شك فيه أنه إذا كانت هذه العادة الخطرة ، عادة إحراق البيوت عمداً ، هى التى نشأت عنها معرفة الناس بفن الشواء ، فإن فيه ما يبررها ويذهب بكثير من أضرارها .

أغلاط شائعة

بقلم

تشارلس لام

١٨

١ — لا يفعل الجميل إلا ذو الوجه الجميل

لا شك أن الذين يقولون هذا القول لم يروا قط الآنسة س .

يقول الفلاسفة الأقدمون إن الروح شعاع من الجمال القدسي يهبط من السماء إلى الأرض ، وإنها كلما زاد نصيبها من سناه الباهر زاد أثرها في غلافها المادى حتى تهيئه لسكناها وتجعله متفقاً مع طبيعتها .

فإذا صح ذلك كان علينا أن نحكم بلا تردد أن روح الآنسة س قبل أن تهبط إلى هذه الأرض لم تكن موفقة فى اختيار الجسم الذى حلت فيه .

وفى هذا المعنى نفسه يقول الشاعر اسپنسر فى نشيد له يحيي به الجمال :

« كلما زادت الروح صفاء ، وزاد نصيبها من نور السماء ، زاد حرصها على اختيار الجسم الجميل لتحل فيه وتزينه ، وتسبل عليه ثوباً من الرقة والبشاشة ، وليس من ينكر أن الجسم يكون كما تكون الروح ، لأن الروح هى الأصل ولولاها ما كان الجسم »

وما من شك فى أن اسپنسر الذى يقول هذا القول لم ير قط الآنسة س ، وعندى أنه يحسن بنا ألا نأخذ آراءنا فى الفلسفة عن هؤلاء الشعراء

وحجتى فى ذلك أن اسپنسر نفسه يقول فى آخر هذه القصيدة قولا غريباً لا تدرى معه أى القولين تصدق . وهذا هو ما يقوله بنصه :

« وكثيراً ما نرى العقول الجميلة محتبسة فى أجسام مشوهة ، ولعل المصادفة المحضة هى التى ألقت بها فيها رغم طبيعة الأشياء ، أو لعل المادة التى خلقت منها هذه الأجسام كانت صلبة جامدة استعصت على العقول ، فلم تستطع تشكيلها بما يلائمها فظلت على حالها مشوهة قبيحة » .

ويحق لنا أن نستدل من هذا القول على أن اسپنسر قد رأى إنساناً يشبه الآنسة س .

وما من شك فى أن روح هذه السيدة قد أوقعها سوء الطالع فى جسم من هذه الأجسام المشئومة ، التى يتحدث عنها اسپنسر فى هذه الفقرة الثانية . ولم أشاهد فى حياتى عقلا من العقول الجميلة — وأقسم أن عقل الآنسة س من أجمل العقول — صادف طينة صلبة مستعصية على التشكيل كما صادف عقل هذه الآنسة . إن الذى ينظر إلى وجهها يحكم من فوره بأنه أحسن قبح مستطاع . ذلك أنه إذا كان لا بد أن يكون الإنسان قبيح الوجه فخير له أن يكون هذا القبح شاملا لكل جزء من أجزائه ، بدل أن يكون مقصوراً على بعضها دون البعض الآخر . وليس من الناس من يستطيع أن يتهم الآنسة س بأن وجهها يكون خيراً مما هو ، لو كان أنفها أو فمها غير ما هو فى الواقع . ولقد رأينا ذوات الجمال من بنى جنسها فى أشد الحيرة لا يدرين أى معارفها أقبح . ذلك أن الأثر العام الذى تحدثه فيمن يراها أثر يجل عن التفصيل ؛ فهو أثر شامل — منسجم إذا جاز أن نعبر عنه هذا التعبير — لا يقبل هذه التحفظات والاستثناءات البغيضة ، حتى ليخيل

إليك حين تنظر إليه أن مَثَّالا من اليونان الأقدمين طاف ببلاده فاختار من أقبح أهلها وجوهاً شفة من هنا وذقناً من هناك ، وأنفاً من هذه الناحية وعيناً من تلك ، وصاغ منها كلها نموذجاً للقبح . فهو قبح متناسب منسجم بعضه مع بعض ، يعجز أعظم الخبراء عن أن يختار له أقبح مما فيه ، أو أن يقول إن هذا الجزء أو ذاك قد وضع فى غير موضعه . ونحن من الذين يؤمنون بأن القبح الحقيقى كالجمال الحقيقى أثر من آثار الانسجام ، وأنه مِثْلُه أيضاً لا يطيق له منافساً أو شريكا . ولم ير أحد الآنسة س إلا حكم من فوره بأنها أقبح امرأة لقيها فى حياته . وإن الساعة التى تحظى فيها برؤية وجهها لتعد من الساعات التى لا تنساها قط طول حياتك ؛ فأنت يسرك أن قد رأيتها ، كما يسرك أن قد رأيت أبا الهول . وليس فى الناس من يستطيع الادعاء بأنه نسيها بعد إذ رآها ، ولم يحدث قط أن اعتذر لها إنسان بأنه لقيها فى الطريق يوماً ما ولم يعرفها ، فتلك حجة واهية ؛ كما لا يستطيع أحد أن يخطئها أو يقول لها « أظن أنى رأيت ذلك الوجه فى مكان ما ، ولكنى لست أذكره » . فأنت لا شك ذاكر حجرة الاستقبال التى رأيتها فيها ، وظننتها أول الأمر تمثالا ، وعجبت أين عثر عليه صاحب الدار ، ثم زاد عجبك حين بدأ التمثال يحرك شفتيه ويحركهما بالكلام الرقيق .

ولم يفكر أحد قط فى أن يطلب إلى الآنسة س أن تجلس أمامه ليصورها ؛ فالصورة تؤخذ للذكرى ، ومن العبث أن تحتفظ بصورة للذكرى إذا كان صاحبها فى غير حاجة إلى هذه الوسيلة المصطنعة ، وإذا كانت صورته لا تمحى من ذاكرتك بعد أن تراه أول مرة . على أن وجه الآنسة س ليس مع ذلك بالوجه الحقير ؛ إن ما فيه من ابتكار ، لامثيل له فى كل الوجوه ،

ليمنعنا أن نصفه بهذا الوصف . وليس هو أيضاً من الوجوه التى تقل قبحاً إذا ما زدتها نظراً . فمن الناس الأخيار الذين لم ينالوا نصيباً موفوراً من الجمال من لا يملون من فعل الخير فيخدعون بعملهم هذا أبصارنا ، ويمحون من عقولنا الآثار الصحيحة التى تنقلها إلينا حواسنا ، فتصبح تلك العقول مهيئة إلى البحث عن شواهد دالة على الجمال لم تقع العين عليها عند أول نظرة ، فنتبين الرقة كامنة تحت الشفة السفلى ، والدعة فى نظرة العين اليمنى.

أما الآنسة س فإن وجهها يبقى كما هو بعد أن تصنع لك الخير أول مرة . وإذا كررت صُنعَـهُ ألف مرة ، وأيقنت أنها لا تتردد فى أن تضاعف هذا العدد فى المستقبل ، لم يتغير وجهها الفذ عما كان عليه حين رأيته فى المرة الأولى . وليس فى وسعك أن تقول عن هـذا الوجه إن الجدرى شوهه ، وإنه لولا ذلك لكان وجهاً جميلا — وتلك تحية أقرب إلى الذم منها إلى المدح — ، ذلك بأن الآنسة س لم تصب قط بالجدرى ، أو أن إصابتها به كانت إصابة خفيفة . كلا ، إن قبح ذلك الوجه قبح أصيل ، وهو ميزة له اختص بها من بين سائر الوجوه ، وقد عُرِفت به بين الناس أجمعين .

---

٢ — حسبك من غنى شبع ورى

لا يوجد رجل أو امرأة أو طفل يسكن بالقرب من قصور الأثرياء يصدّق هذا القول ، بل إن مبتكره نفسه لم يكن يؤمن به ، وإنما قاله ليثأر به ممن لم يَدْعُـهُ إلى وليمة فاخرة ؛ فهو قول أجوف لا معنى له ، وسفسطة سخيفة ، وكذب صريح ، يخادعوننا به ونحن نعرف أنهم كاذبون . وحسب مائدة الغنى فضلا أنه يبقى منها ما يشبع ويروى فى اليوم التالى وما بعده .

وهذا المثل ينتمى إلى طائفة من الأمثال ترمى كلها إلى تحقير المـال

والإقلال من شأنه ؛ ومن هذه الأمثال ما يقول إن الصحة لا تشترى بالمال ، ومنها ما يُشَبِّه الذهب بالأقذار ، وما يعيب على الملابس الجميلة أنها تصنع من صوف الضأن ومما يخرجه دود القز ، وما يعيب على اللآلئ أنها أقذار تؤخذ من بطن الصدف . ومن هذا النوع أيضاً قولهم إن الأرض الزراعية « طين » ، وهى سفسطة سافرة ، لا تصدق حتى بمعناها الحرفى إلا حين تبتل الأرض بماء المطر ، أو حين تروى عن قصد لتخرج النبات .

ولسنا نشك فى أن هذه الحكم وأمثالها من الأقوال التى يراد منها أن تغرس القناعة فى النفوس قد اخترعها مقترض ماكر كان يأتمر بمال جار له غنى ، ولم يجد له حيلة يحتال بهـا عليه إلا هذا التلاعب بالألفاظ . وليس عليك إلا أن تجردها مما صيغت فيه من زخرف اللفظ حتى تتبين ما فيها من خداع واضح . فشرائح الضأن وأكتافه ، وعصير الفاكهة اللذيذ ، والكتب النافعة المسلية ، والصور الممتعة ، والقدرة على الأسفار ومشاهدة بلاد العالم ، والاستقلال وراحة البال ، والتحرر من كثير من القيود ، وانتفاع المرء بوقته كما يريد ، هذه كلها ليست أشياء تافهة مهما أطلقنا من الأسماء الحقيرة على ذلك المعدن النفيس الذى يجعلها فى متناول أيدينا .

---

٣ — ليس للرجل أن يضحك من فكاهاته

ذلك أقسى ما يمكن أن يفرض على الإنسان من التضحية وإنكار الذات . وهل شىء أقسى من أن يطلب إلى الإنسان أن يقدم الخير للناس ولا يشاركهم فيه ، وأن يجلس طاويا على مائدته ، وأن يمتدح الطعام الشهى الذى يقدمه لضيوفه ، ولا يجد ما يؤكد به هذا المديح إلا أنه هو لم يذقه ؟ كلا إننا نحب أن نرى الرجل الفكه « يتذوق » طعم الفكاهة التى يقدمهـا لأصحابه ،

وأن نرى الفكاهة نفسها أو الفكرة الجميلة الغريبة تتردد على شفتيه بضع لحظات قبل أن ينطق بها لسانه ، فإذا كانت فكاهة ظريفة جديدة ، ممتعة حقاً ، قد خلقها الظرف الذى قيلت فيه ، وإذا كان قائلها لم يفكر فيها قط من قبل ، كان هو بطبيعة الحال أول من يتذوقها . وإذا ما طلب إليه فى هذه الحال أن يكبت سروره بها كان ذلك تكليفاً شاقاً بل إهانة حقة . وهل لهذا معنى إلا أن أصحابك قد بلغوا من ضعف العقول وسخافتها أنهم يتأثرون بصورة أو خيال لا تتأثر به أنت ، أو لا تتأثر به إلا قليلا ؟ أليست هذه العقلية هى عقلية المضيف الذى يعرض على ضيوفه تحفة جميلة نادرة ثم يدعى أنه « لا يرى فيها شيئاً غير عادى » .

حجرة المريض

بقـــلم

وليم هازلت William Hazlitt

١٧٧٨ — ١٨٣٠

[كان والده قسيسا ، وكان يـعد نفسه ليكون رساما ، فسافر إلى باريس لهذا الغرض ، ولـكنه لم يفلح فى دراسة الفن ، فتحول عنه إلى الأدب ، واتصل بكبار أدباء العصر أمثال كولردج ، وورد سورث ولام ، ولى هنت . وكان كاتبا أديبا ، وناقدا وخطيبا ، ألقى فى لندن عدة محاضرات عن نشأة الفلسفة الحديثة ، وألف عدة كتب أشهرها كلها كتابه عن شخصيات روايات شيكسبير Characters of Shakespeare's Plays وقد أهداه إلى صديقه لام . أما مقالاته فقد نشرها فى صحف لندن . وفى آخر أيام حياته بدأ يكتب سيرة بطله نابليون ، لـكنه لم يتمها لاعتلال صحته . وكان آخر ما قاله وهو يحتضر « لقد حييت حياة سعيدة I've lived a happy life »] .

١٩

ليس ثمة إلا خطوة واحدة بين ساحة اللهى المزدحم وحجرة المريض الخالية ؛ بين الأصوات الصاخبة ، والأنوار الساطعة ، والمرح العظيم ؛ وبين الوحدة والظلمة والـكآبة والألم الشديد . إن نسمة من الهواء ، أو سحابة

فى السماء ، لكفيلة بإحداث الانتقال من هذه إلى تلك ؛ وهو انتقال يحدث فى لحظة ، ولكن يبدو أنه سيبقى أبد الآبدين . والمرض الفاجئ لا يقطع علينا أسباب ظفرنا وبهجتنا فحسب ، بل إنه يمحو من مخيلتنا كل ما فيها من ذكريات لهذا الظفر وهذه البهجة ، كما يمحو منها كل رغبة فيهما . فنى المرض نفتقد لذة النعيم وبهجة الخيال . فأجسامنا لا تتحرك من الفراش ، وأفكارنا تدور حول المرض وحده ، وقد سدت أمامنا طريق البهجة والحبور ؛ ولو أن أبواب الخيال بقيت مفتوحة ، واستطعنا أن نتنقل بأفكارنا من فراشنا المضطرب إلى الماضى أو المستقبل ، لنرى مناظر المرح والبهجة تسبح على بعد منا وإن حرمنا لذة الاستمتاع الحاضر بها ، لكان فى هذا التفاوت بين الحالين شىء من الراحة رغم هذا الألم ، ولخفف عنا هذا النعيم الزائف ما نحن فيه من غم وكمد . لكن أشد ما يؤلم الإنسان فى المرض أنه لا يستطيع أن يفكر فى شىء غير الشقاء الذى هو فيه ، فهو محبوس فيه مقيد به ، قد أقفلت عليه أبواب عقله ، وأنزلت عليه سُجُفه ، وامتنع عليه كل تفكير إلا فى المرض . لقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه ، فإذا حاول انتزاعها من التفكير فى المرض لم يجد مخرجا منه إلا إليه ، وكأن روحه قد ألقيت مع جسمه المهشم فى هذا الركن المهمل من تلك الحجرة المنعزلة .

وفى المرض يكره الإنسان نفسه ، ويكره كل شىء غيره ، ولا يجد شعاعا من الراحة يخترق ظلام الألم الحالك ليبعث فى نفسه شيئا من أسباب النعيم إذا كان جسمه يتلوى من شدة العذاب . وماذا تفيد الأصوات العذبة ، أو الأنغام الموسيقية الشجية ، إذا لم يكن فى وسع الإنسان حتى أن يتنفس ؟

إن المريض الذى يحاول الاستمتاع بها إنما يحاول المستحيل ، وهو لا يلبث أن ييأس من ذلك العبث الباطل ، وهو إيجاد الصلة بين البهجة والألم ، وخلق النشوة من البلادة . ذلك عمل يُعمِرض القلب نفسه ، فكل الذى يشعر به مَن هذه حاله هو مرضه الحاضر ورغبته الملحة فى التخلص منه ؛ هذا هو الذى يرغب فيه ويحرص عليه ولا يتحول عنه ، وكل ما عداه فى رأيه سخف وهذيان . ويظن المريض وهو فى مرضه أنه لو استطاع أن يشترى الراحة بأى ثمن لقنع بهـا عن كل ما عداها من أسباب السرور ؛ ويبدو له أن كل شىء سوى المرض والعلاج تافه حقير ؛ بل إن المرض ليتجسم فى عينيه حتى يتصوره شيطانا مريدا ، وشبحا هائلا ، وكابوساً يحوم حوله ويجثم عليه ويكتم أنفاسه ، فيكافحه أول الأمر ، ولكنه يعضه بنابه ، ويقبض عليه بيده ، ويعذبه ويروعه بمنظره الرهيب ؛ وهو يحس به ممسكا بكل عضو من أعضاء جسمه ، وكل موهبة من مواهب عقله ، ثم يستحوذ آخر الأمر عليه كله ، فلا يستطيع أن يحول عقله عنه ساعة من الزمان ، حتى ليبدو له أن كل شىء سوى الألم قد فقد ما له من قيمة وأثر فى النفس . وهذا هو منشأ ما يتخذه المريض فى بعض الأحيان من قرارات طَـرِيفة لخير المجتمع ، وما لفراش المرض من فضل على العالم وعلى عرش الملوك . إنا ليسهل علينـا أن نترك الخمر حين لا نحس فى أفواهنا إلا بطعم الدواء ، وألا يسيل لعابنا لشهى الطعام حين نحس بأن أمعاءنا تكاد تخرج من بطوننا . والحب والجمال يطيران من الفراش الذى تَنشَّاه المريض الخامل القلق ألف ثنية ، وكأن مراكز السرور فى العقل قد قضت عليها الآلام التى تخـترم الرأس وتعصر الأعضاء عصراً ؛ وتنتاب المريض الحمى

فيضطرب ويرتجف كما ترتجف أوراق الشجر فى الريح العاصفة ، ويسوء هضمه فيحس كأن أثقالا من الرصاص قد حشرت فى بطنه . ولو أن للأفكار التى تتردد فى العقل أصواتا تُسمع لسمعت منها «ألا فليسقط الطمع ، وليسقط الشح والحرص على المال !» . وما أشبه حياة المريض بحياة الناسك المعدم ، الذى لا يطعم إلا من نبات الأرض ولا يرتوى إلا من ماء الغدير الكدر .

لكن الأيمان المغلظة التى نقسمها فى أثناء المرض تكون فى الغالب قصيرة الأجل ننقضها على الفور إذا ما قدر لنا الشفاء ؛ وليس الباعث على توكيدها فى أثناء المرض ، وعلى التحلل منها بعد الشفاء ، سوى حب الذات . وما أسرعنا إلى نقض التوبة التى نُعلنها على رؤوس الملأ بأعلى الأصوات ، ونُشهد الله عليها بأقوى الأيمان ؛ ذلك أن التوبة والعودة صادرتان عن سبب واحد هو هذه الأنانية القوية التى تتملكنا حين نتوب وحين نعود ، وذلك العجز التام عن النظر إلى ما وراء الساعة التى نحن فيها .

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب من ضعف الأثر الذى تحدثه فى العقل آلام الجسم ، اللهم إلا حين يكون الإنسان خاضعا لسلطانها المباشر . فما دام تأثير هذه الآلام باقيا كانت هى كل شىء ، وإذا ما زال أصبحت لا شىء . والمريض يتقلب ويتلوى فى الفراش ، وينام تارة على جنبه الأيمن وتارة على جنبه الأيسر ، ثم يتمدد على ظهره ، وينبطح على بطنه ، ويلف نفسه بملاءة فرشه ليتقى البرد ، ثم يلقيها على الأرض لينجو من الاختناق أو الحر ، ويشتد به الألم فيقبض على وسادته بكلتا يديه ، ويلقى بنفسه من فراشه ، ويذرع غرفته ذهابا وجيئة بخطى سريعة أو كليلة ، ثم يعود مرة أخرى

إلى فراشه وقد أنهكه التعب والألم ، ولـكنه لا يجد عاصما من هذا ولا راحة من ذاك . وهو تارة يستجمع كل ما أوتى من صبر ، وتراه يكاد يتميز من الغيظ ، ولـكن هذا كله لا يجديه نفعا ، فـكأن المرض قطعة منه أو كأنه هو قطعة من المرض ، أو كأن الحياة والموت يصطرعان فى جسمه ؛ ثم يبذل جهودا جديدة ، ويستنبط حيلا جديدة ، ولـكن شيئا منها لا يخلصه من ألمه ، أو يبعث فى نفسه النجاة من عدوه القاهر المسيطر . فساعة يُحس بهذا الألم كوخز الإبر ، وأخرى يتصوره أثقل من الجبل ، وهو فى هذه وتلك أكثر مما يطيق . ويبدو له مع ذلك أن لا آخر لهذا العذاب الطويل ، وتخور قواه من الضعف تارة ، ويجن من الألم تارة أخرى ، ويزعج ملائكة السماء بدعائه وصلواته ، ويظن أن الموت يتربص به ، وأن أجله قد اقترب ، أو هو يتمنى أن يفارق الحيـاة لينجو مما هو فيه ؛ ويسائل نفسه عن أصل الشر وضرورة الألم ، وينكر فائدة الدواء ، ويرمى الأطباء جميعهم بالخداع أو الجنون . وكيف لا يكونون مخادعين أو مجانين وهو يطلب الراحـة من ألمه ، وهم يباعدون بينه وبين مطلبه ؟ وما ذلك إلا لما طبعوا عليه من الشر ، أو لرغبتهم فى التظاهر بأنهم أكثر من المريض علما وأحصف رأيا . وتراه يجادل الصيدلى ويسخر من الممرضة ، وهو عاجز عن أن يرى أن الحالة التى هو فيها لا يمكن أن تدوم ، بل إنه ليغضب ممن ينطقون أمامه بكلمة من تشجيع ، ويظن أنهم يخادعونه أو يعاملونه معاملة الطفل الرضيع . وقد يبلغ به الأمر أن يفكر فى الخـلاص من مرضه بالسم أو الخنجر أو الحبل ، ولـكنه لا يجد لديه قوة على تنفيذ ما يريد ، لأن أعصابه قد تحطمت فلم تعد تقوى على هذا الانتقام الحقير .

ثم تتبدل الحال ، وينفك الطلسم ، وينسى المريض كل ما كان فيه ، ولا يكاد المرض يدبر عنه حتى يسخر منه ، ويبدو له ما كان فيه كأنه حلم أو خرافة ، فتكون الصحة هى الحال المألوفة ، وتصبح القوة حقّه فعلا وقانونا ، ويغمض العين عن كل ما يذكره بمرضه ، ويسخر منه ويحتقره ، ويلقيه عنه كما يلقى زجاجات الدواء من النافذة . ويبدأ دور النقاهة فيصحو المريض من غفوة قصيرة ، ويرى شعاعا من الضوء الذهبى يخترق الستائر البيضاء المعلقة على النافذة التى أمامه ؛ فهل هو مطلع فجر يوم آت أو مغرب شمس يوم مفارق ؟ إنه لا يعلم ذلك علم اليقين ، لأن المخدر الذى تناوله كان قوى الأثر فى عقله ، فأنساه هل تقدم به الزمن أو وقف أو ارتد إلى الوراء . ثم يَـنْتزع مِن تفكيره فى نفسه ساعةً من الزمان يفكر فيها فى أمور خارجها ؛ فيظن أنه إذا استعاد فى الخيال صورة منظر رآه ذات مساء كانت الشمس فيه تنحدر فوق الأفق ، والسحب البيضاء ، والسماء الصافية الزرقاء ، والمروج الخضراء ، والنسيم المنعش العليل ، إذا استعاد هذا المنظر رَوّح عن نفسه وأزال عنه بعض خموله وتعبه . ولـكنه يحاول عبثا ، فالخيال لا يطاوعه ولا يرفرف بأجنحته إلا فوق فراشه ، ويظل الهواء المحبوس فى حجرته غير الهواء النقى الطليق فى خارجها ، ثم تختفى الشمس ويظلم الجو ويخيم السكون .

ثم يؤذن للمريض بالخروج ، فينسى الوسادة المتقلبة ، والشراب المُحَلَّى ، وزجاجات الدواء ، والجب الذى كان ملقى فى غيابته . ذلك أن ما لا يتفق مع إحساسنا الحاضر ، أو عاداتنا المقررة ، لا يستقر طويلا فى المعقول ، ومجال الحواس والعادات مجال ضيق لا يتسع لأكثر من ضيف

واحد فى وقت واحد . ومن أجل ذلك لا نرى ما يدعو إلى العجب فى أننا لا نرتاع كثيرا من المصائب الكبرى قبل أن تحل بنا ، ولا نفكر فيها كثيرا بعد وقوعها . وما أصدق القول المأثور «إن البعيد عن العين بعيد عن الخاطر» وقد يكون فى هذا ما يفسر ضآلة الأثر الذى يحدثه العقاب فى النفس . ذلك أن العقاب حالة طارئة مغايرة للطبيعة ، فإذا لم يمس الشرف والضمير (وكيف يمسهما إذا لم يكن لهما وجود) كان عديم الأثر . وإذا كان ثمة شرف وضمير فإن العقاب يجففهما ويحرقهما ، فالأصفاد والسجون ، والخبز الأسود الخشن ، والأشغال الشاقة ، مما يرتاع له عقل المجرم الذى فرضت عليه ، والذى أسرف فى حريته وأطلق العنان لشهواته ؛ ولكنه يلقيها كلها من وراء ظهره ضاحكا منها مستهزئا بها ساعة يستطيع أن يفر منها أو يحتال عليها .

وذلك أيضاً شأن الأسفار . فكثيراً ما نلاقى فيها الأمرّين من برد قارس ، أو حر لافح ، أو خطر داهم ، فنقسم ألا نعود إليها إبداً ، ولكننا لا نحجم عن القيام برحلة جديدة فى اليوم التالى لعودتنا من رحلة قديمة ، عند ما ترتسم فى مخيلتنا من جديد صورة الطبيعة الجميلة ، والمناظر المتغيرة ، والحوادث المتوقعة ، فننسى من فورنا الحر والبرد ، والصخب والضجيج ، وعناء السفر ، لأن الجسم ينسى متاعبه ولا يفكر فيها إلا حين تعاوده مرة أخرى . أما الخيال والعاطفة فهما أدوم وأبقى ؛ فاللذة والألم إذا انقضى سببهما لم يبق لهما فى الجسم أثر ، وأما الخيال وأما العواطف فلا يبدأ وجودها إلا ساعة يزول سببهما .

ومن العجيب أن الإنسان إذا خرج من حجرة المرض التى سجن فيها

فترة من الزمن ضعفت فيهـا قوته واضطربت أعصابه ، ثم شاهد الطبيعة لأول مرة ، فإن ما تقع عليه عينه من الأشياء يبدو له فى صورة مريبة أقرب إلى الأشباح منها إلى الأجسام . فالناس فى الطرقات يبدون له وكأنهم ذباب أو كأنهم كائنات بين الحياة والموت ، والحقيقة أنا نحن الذين قد خرجنا تواً من خمولنا الوخيم ، وخلعنا على غيرنا شعورنا الضعيف بالحياة والصحة والحركة ، أو لعل ما أصابنا من ألم شديد ، وما قاسيناه من إجهاد عنيف ، قد جعل الأشياء العادية المألوفة تبدو كالأشباح والأطياف . وليس من حقنا أن نقول إننا قد عدنا إلى أنفسنا إلا حين نجلس كما كنا نفعل من قبل فى حجرة الزائرين ، ونلتف حول المدفأ ، ونحس بالجوع والرغبة فى الطعام ، ونمسك بيدنا كتاباً نطالع فيه . على أننا حتى فى ذلك الوقت لا نثق بحواسنا ، بل كثيراً ما نعمد إلى تجربتها للتأكد من سلامتها ، كما يمد الإنسان يده عند ما يصحو من النوم ليعرف هل هو فى يقظة أو فى منام . وتلك هى الأيام التى تحلو فيها القراءة ؛ فالإنسان عقب شفائه من مرضه ، ونجاته من موته ، يقبل على الكتب برغبة الشباب ونشاطه ، وليس كل السبب فى هذا الإقبال أنه فى تلك الأيام التى لا يقوى فيها على العمل المجهد يستعين بالقراءة على قضاء وقته وإزالة السآمة والملل من نفسه ، بل من أسبابه أيضاً أن القراءة فى هذه الفترة من الحياة قد تعيد إليه شعوره الحماسى غير المتصنع الذى كان يحس به عند ما قرأ لأول مرة . ذلك أن المرض قد عطل وجدانه أو أماته إلى حين ، وحال بينه وبين مشاغل العالم ، وأنجاه من العناد والخصام ، وأعاده طفلا ذلولا كما كان فى بدء الحياة . وكل تغيير يطرأ على حياته فى هذه الفترة يرجع به إلى أيامه الماضية ؛ وليس ثمة شىء أقرب من الكتب

ولا أسرع منها فى إزالة جميع ما بقى لديه من متاعب المرض ومنها التاعب الجسمية نفسها ، حتى إن كتاباً واحداً منها ليكفى أحياناً فى إزالة كل ما يعتريه من سوء الهضم الذى يعقب المرض . والإنسان حين يعود إلى الحياة محطم الأعصاب مضعضع القوى يخيل إليه أنه يبدأ الحياة من جديد ، وليس له فيها أغراض واضحة مؤكدة ، فهو كالآلة التى اختلت فأصبحت تتأرجح فى سيرها ولا تتبع الطريق السوى . وكأن اقترابنا من الموت فى أثناء المرض قد روعنا ورغبنا فى الابتعاد عنه أكثر ما نستطيع ، وجعلنا نعيش فى ماضينا أكثر مما نعيش فى حاضرنا ؛ ونحس بتراخى قبضتنا على الحياة وتصرمها بين أيدينا ، فنستجمع كل ما بقى فيها من قوة ، ونستعيد كل ما ادخرته لنا ذاكرتنا من الماضى . ومن أجل هذا نرى كل شىء معكوساً على الماضى ومنسوبا إليه ؛ نسمع أصوات المرح فى الطريق فتعود بنا إلى ذكرى جماعة كنا معهم فى بلدة أو قرية فى الريف ، وقد تعود بنا إلى أيام الصبا ، فنرى الصغار يلعبون على شاطئ البحر ، ونسمع الأمواج الصاخبة تصطدم بالصخور . بل إنا ليخيل إلينا أن الأصوات الهادئة المألوفة أصوات منقولة إلينا من خلال عشرات السنين ؛ ونشم رائحة الوردة فنحس أنها أذكى ضعفين مما كانت حين اختلطت رائحتها بالأدهان والعطور ؛ وتسرنا ذكرى الأسفار الماضية أكثر من الأسفار نفسها ، لا لشىء إلا أننا كنا على فراش المرض .

والكتاب هو الطلسم السحرى الأكيد الذى يعيد هذه الذكريات كلها إلى الخيال ، وأفضل الكتب عندى هو الكتاب القديم ؛ فإذا قرأته بعد مرضى أحسست أعصابى تنتعش ، وروحى تبتهج ، حتى لا ترانى آسف

على الظرف الذى ألجأنى إليه ، وإلى مؤلفه . لقد أنسانى حجرة مرضى حتى كدت أنكر على الناس قولهم إن « إذنا بدخول المسرح من غير أجر هو أعظم لذة فى الحياة »[١]. وذلك لأنى وأنا أطالع الكتاب أحس أنه إذا كان المسرح يطلعنا على الرجال المتنكرين ، وعلى صور من العالم جديدة ، فإن الكتب تنفذ بنا إلى أرواح غيرنا من الناس وتفتح أمامنا ما استغلق علينا من أرواحنا نحن ؛ فالكتب أول ملاذنا وآخرها ، وألصقها بنا وأقربها إلى قلوبنا .

(١) يشير الكاتب إلى موضوع مقال له فى هذا المعنى كتبه فى نفس ذلك العام فى إحدى المجلات . (المعرب) .

موت الأطفال

بقلم

چيمس هنرى لى هنت James Henry Leigh Hunt

١٧٨٤ — ١٨٥٩

[كان أبوه وجده من رجال الدين ، وكان رفيقاً فى Christ's Hospital لكولردچ ولام ، لكنه لم يواصل الدرس بل انقطع عن الكلية فى سن الخامسة عشرة كما انقطع عنها لام . وكان كثير القراءة ، وقد أصدر عدة مجلات دورية أدبية وسياسية ، وأدت آراؤه الحرة المتطرفة إلى الحكم عليه بالسجن وبغرامة قدرها ٥٠٠ جنيه . ولم يكن يُضَيَّق عليه كثيراً فى سجنه ، فكان يزوره فيه كبار الأدباء أمثال تشارلس لام وأخته ميرى وتومس مور Thomas Moore وبيرون Byron وشلى Shelley وكيتس Keats . وبعد أن خرج من السجن دعاه شلى وبيرُن للسفر إلى إيطاليا لإنشاء جريدة مناصرة لحزب الأحرار ، ولكنه لم يكد يصل إليها هو وأسرته حتى مات شلى غرقاً ففشل المشروع . وبعد أن أقام لى هنت فى إيطاليا بعض الوقت عاد إلى إنجلترا وصرف بقية حياته فى مغامرات صحفية وكتابات أدبية . وفى عام ١٨٤٨ رتبت له الحكومة معاشاً قدره ٢٠٠ جنيه سنوياً .

وكان لى هنت يطمع فى أن يكون شاعراً عظيما ، لكن شعره لا يقرأ منه الآن إلا قصيدة واحدة ، هى قصيدة Abu Ben Adhem. غير أنه نجح نجاحا

عظيما فى مقـالاته الأدبية التى نشر معظمها فى صحيفة The Indicator (الدليل) وعلى هذه المقالات تقوم شهرته] .

٣٠

سئل مرة فيلسوف يونانى : « لم تبكى على موت ولدك وأنت تعلم أن البكاء فى هذه الحال لا يفيد ؟ » فأجاب : « ومن أجل هذا أبكى » . وكان هذا الجواب أعظم شاهد على رجاحة عقله . وما من شك فى أن القول بأن أعيننا ، وهى ينبوع الدموع ومستودعها ، يجب أن يحتبس فيها الدمع أبداً ، هو السفسطة بعينها . ومن الحمق ألا يفيض الدمع من العينين أحياناً ؛ فالحزن يطلقه ليخفف من حدته . نعم إن العبرات الأولى قد تـكون مرة وغزيرة ، ولـكن التربة التى تسقيها هذه العبرات تسوء حالها إذا لم تُرو منها ، فهى تطفئ حمى النفس المتأججة ، وتخفف حدة البؤس الجاف الذى يلفح الوجوه ويجعدها ، ويمرضها للذبول .

نعم إن بعض الحزن عارم عنيف ، إذا تفجرت منه الدموع طغت على الإنسان وغلبته على أمره . ذلك حزن من واجبنا أن نصبر عليه ونقاومه ، أو أن نحنى رؤوسنا له من غير أن نستسلم للبـكاء حتى يمر ولا يصرعنا كما تمر الريح على المسافر فى الصحراء ، ولـكننا حين نشعر بأن الدموع تخفف من لوعتنا ، فإن من الخطأ أن نحرم أنفسنا من هذه الوسيلة التى نستطيع بها أن نبرد غلتنا ، ونخفف من حـدة الحزن بالخضوع له بعض الشىء . ومن الأحزان ما هو رقيق بطبيعته بحيث يكون من البطولة الـكاذبة ، أو ما هو شر من البطولة الـكاذبة ، أن يأبى الإنسان عليه دمعة من عينه ؛

ومن هذا النوع موت الأطفال . وقد يكون لدى الآباء من الظروف الخاصة ما يجعل الاسترسال فى الحزن لموت أطفالهم مستحبا إلى حد قليل أو كثير ؛ ولكن يجب ألا يشير أحد على الآباء من أجل هـذا بأن يحبسوا دموعهم فى هذا الظرف ، كما يجب ألا يشير عليهم أحد بأن يضنوا ببسماتهم على الأطفال الأحياء ، أو أن يقصروا فى إظهار حبهم لهم وعطفهم عليهم بغير هذه الوسيلة . فمصدر البسمات والدموع عاطفة واحدة ، وهى عاطفة لا يلجأ الإنسان إليها عبثا ؛ وهى فى الحزن تخفف عنا عبئه القاسى الثقيل ، وتفك بعض الأغلال التى تقيد الروح ، والتى تركز تفكير الإنسان حول فكرة واحدة يكتئب لها ويضيق بها صدره .

ومن شأن الدموع التى من هذا النوع أن تجف شيئا فشيئا مهما كان تيارها فى أول الأمر قويا جارفا ؛ فليس من طبيعة الإنسـان أن يظل طول حياته يألم كلما فكر فى فقيد عزيز ؛ ذلك أن ما ينطوى عليه القلب من حب لهؤلاء الأعزاء لا يلبث أن يتغلب على هذا الألم ، وإن كان مصدره الموت نفسه ، وأن يحيل ذكراهم إلى نوع من السرور ، وأن يرسم لهم فى الخيال صورة رقيقة لطيفة .

وأمامى الآن وأنا أكتب هذه السطور بقعة من الأرض تضم رفات أعز الناس علىّ [١] ؛ وإنى لأرى من نوافذ حجرتى الأشجار المحيطة بها ، ومنارة الكنيسة المجاورة لها ، ومن حولها المروج الخضراء تمتد على مدى البصر ، ومن فوقها السحب يدفع بعضها بعضا ، تحجب ضوء الشمس تارة وتسمح له بالنفاذ من خلالها تارة أخرى ؛ وتهب على المكان نسمات الربيع معطرة بشذى الأزهار ، فتذكرنى بالبحر البعيد الصاخب الذى يحتفظ له

(١) يقصد قبر والدته فى همبستد Hampastead

القلب الثاوى فى هذا المكان بذكريات جمة . ومع هذا كله فإن رؤية هذه البقعة لاتبعث فى نفسى شيئا من الألم ، بل إن وجود القبر فيها ليضاعف مالها من سحر وجمال ، ويربط فى نفسى مرح الطفولة بمباهج الرجولة ، ويضفى على الرياح رقة وهدوءا ، وعلى المنظر كله بهجة وسرورا ، وكأنه يصل الأرض بالسماء ، والفناء بالخلود ، ويكسب الطبيعة الرحيمة كلها رقة الأمومة . ولقد كانت السعادة هى التى تشيعها فى النفس ساكنة هذا القبر مهما أحاط بها من المتاعب ، وفى إشاعة هذه السعادة الآن والتمتع بها تنفيذ لرغباتها ، وتحقيق لآمالها . وإنما ليذكرنا بعزمات من الكبار ما كان بيننا وبينهم من صلات ؛ فلربما كانوا أصدقاء أوفياء أظهروا لنا فى ساعة المحنة ماخفف عنا بعض البلاء ؛ أما الصغار فمرحهم الطاهر البرىء يغنيهم عن فضائل الكبار ؛ وخير مايتمثل فيه المرح المبرأ من دنس الأحقاد هو الطفل يمرح فى حجراته ، فبراءة الطفل ومعزته تبقى فى الذاكرة بعد موته كما تبقى فيها فضائل الكبار . فالأطفال ، وإن لم يقوموا عن قصد بواجبات الصداقة ، أو لم يختاروا أن يكونوا أصدقاء أوفياء ، أو يعملوا لتخفيف بلوانا فى ساعة المحنة ، قد أشركونا بقدر مافى وسعهم فى مسراتهم وآلامهم . والصلات التى بيننا وبينهم لم تختلط بها متاعب العالم كما تختلط بالصلات بين الكبار ؛ ومن أجل ذلك كان الحزن الناشىء من فقدهم هو الألم الوحيد الذى يرتبط بذكراهم ؛ وأما ماعداه من الذكريات فكلها ذكريات سعيدة لاتزول أبداً ؛ وقد يبعث فقدهم على التفكير ولكنه لا يظل على الدوام مصحوبا بالألم ؛ ومن رحمة الله بنا أن الألم مهما يكن سببه لا يدوم كما يدوم السرور . وإذا كان منشؤه موت طفل برىء كان أقصر أجلا ؛ فالذى يدوم

بعد موت الطفل هو ابتسامته التى تبقى منعكسة فى الذاكرة ، كما يبقى ضوء الشمس منعكسا على القمر بعد احتجابها فى السماء .

ويلوح أن موت الأطفال من تلك الآلام المرة التى كتب على الإنسانية أن تتجرعها من حين إلى حين . ولقد يكون فى وسعنا أن نستعين بكل الوسائل لتقليل عدد من يموتون منهم ، ولكن إذا انعدم الموت من بينهم انعداما تاما فإن مولد الطفل لا يكون له فى تفكيرنا إلا معنى واحد ، وهو أنا ضمنا إلى العالم رجلا أو امرأة فى المستقبل . وليس يصعب علينا أن نتصور فى هذه الحال مايخسره العالم ، بسبب هذا الضمان ، من عواطف وآمال محببة غالية . فمعنى الطفولة نفسه لا يبقى له فى أذهاننا وجود ، ويصبح البنات والأولاد فى هذه الحال نساء ورجالا آتين لا أطفالا حاضرين ، قد كمل نموهم فى مخيلتنا ، فكأنهم صاروا نساء ورجالا من فورهم ساعة يولدون . أما من فقد من الآباء طفلا فكأنه لم يعدم وجود طفل له ، مهما بدا فى هذا التعبير من تناقض ؛ وأولئك الآباء وحدهم هم الذين يشعرون بمعنى الطفولة على الدوام ، وهم الذين يُشعِرون به جيرتهم وأصدقاءهم . يكبر الأطفال الآخرون ويصبحون رجالا ونساء ، وينتابهم فى حياتهم ماينتاب سائر الأحياء الفانين من بنى الإنسان . أما الطفل الذى مات فهو وحده الذى يصبح طفلا مخلداً ، لقد استولى عليه الموت بقبضته القوية الرحيمة ، وأنعم عليه بصورة الطفولة والطهارة الأبدية الخالدة .

وأجمل الصور التى تمر بخيالنا هى الصور التى من هذا النوع ، فهى رموز البهجة والسرور دائمة الابتسام .

وأرواح الأطفال الطاهرة الرقيقة هى التى تسكن مملكة السماء ، وهى هناك لا تعرف شيئا عن الخير والشر ، وتتمتع بكل ماوهبت فى الجنة من نعيم .

غارة الجراثيم

كتبها فى سنة ١٩٣٣

هربرت چورج ولز Herbert George Wells

١٨٦٦ — ....

[الأديب والمؤرخ والفيلسوف والعالم الطبيعى والاجتماعى الذائع الصيت . درس العلوم الطبيعية وحصل فيها على درجة B. S. C. بمرتبة الشرف من الدرجة الأولى فى علم الحيوان ، واشتغل عدة سنين بتدريس العلوم ، ثم ترك التدريس واشتغل بالكتابة إلى الصحف . وفى عام ١٨٩٥ نشر أولى رواياته « آلة الزمن » ، وترى فيها أثر دراسته العلمية واضحاً جلياً . وتتابعت أعماله من ذلك الحين فنشر عدداً من الروايات والأحاديث والمحاضرات . وتمتاز رواياته كلها بالطابع العلمى ، والثورة على النظم القائمة ، والدعوة إلى التجديد والإصلاح الشامل فى كل شىء ، فى النظم الاجتماعية والسياسية والتعليمية . وله فى التاريخ كتابان معروفان هما :

A Short History of the World ، The Outline of History

وهو اشتراكى النزعة ، غير راض عن التطور الدمقراطى البطىء . وقد تنبأ بوقوع الحرب الحاضرة وبسببها المباشر وبدايتها بالتقريب . ومن أهم الكتب التى أخرجها فى أثناء الحرب الحاضرة Commonsense of War & Peace

والمقالان اللذان اخترناهما فى هذه المجموعة مأخوذان من كتابه The Shape of Things to Come الذى نشره فى عام ١٩٣٣ وهو

مجموعة مقالات مملوءة بالسخرية من النظم الحاضرة والدعوة إلى إقامة نظم جديدة .

ويعتقد كثير من الأدباء أن روايته المسماة The Story of a Simple Life والتى نشرها فى عام ١٩٠٥ هى خير ما كتب من الروايات حتى الآن ، وهو يشتغل الآن بعمل الأشرطة السينمائية ، وقد أخرج منها ثلاثة مشهورة هى The New Faust ، The Man Who Could Work Miracles ، The Food of the Gods.]

وفى عام ١٩٣٦ نشر كتابه المسمى صورة الأشياء فى المستقبل The Shape of Things to come تخيل فيه أنه يعيش فى بداية القرن الثانى والعشرين ، وأنه يكتب تاريخ العالم فى الفترة الواقعة بين الحرب الكبرى الماضية وبين عام ٢١٠٥ . وقد وصف فى هذا الكتاب حرباً طاحنة تنبأ بوقوعها . شبت نارها فى عام ١٩٤٠ ، ودامت إلى ربيع سنة ١٩٤٩ . وكان سببها المباشر الممر البولندى المعروف ، ثم وضعت الحرب أوزارها فى تلك السنة الأخيرة بناء على اقتراح تقدم به الدكتور بنيش Bens « بوقف القتال » مؤقتاً ، على أن تبقى كل دولة مالكة للأقاليم التى تحتلها جيوشها ، حتى يجتمع مؤتمر الصلح العام لوضع التسوية النهائية . لكن الأوبئة كالحمى الوافدة ، والكلرا ، والحمى المبقعة ، مضافة إلى اضطراب الشئون الاقتصادية ، وما نشأ بين الشعوب من روابط وعلاقات بعد وقف القتال ، كل ذلك حال دون انعقاد المؤتمر المرجو فلم تتم هذه التسوية . على أن القتال ظل موقوفا إلى الوقت الذى تصور فيه ولز أنه يكتب عنه (١٩٥٩)] .

٢١

إن نقص المعلومات المفصلة ، التى جعلت وصفنا للحرب الماضية[1] وصفاً جافا مملا ، يصادفنا أيضاً عند ما نريد الكلام على الأوبئة التى فشت فى العالم عقب وقف القتال ، وقضت على كل تفكير فى مواصلة الحرب . ولم يعن الناس بتدوين المذكرات اليومية ، والرسائل الخاصة ، ووصف ما يقع تحت أنظارهم من الحوادث ، لأنهم شغلوا عن هذا العمل بغيره من الشئون التى ملكت عليهم كل تفكيرهم فلم تدع لهم فضلة من النشاط يصرفونها فيه . وكأن الجراثيم قد حذت حذو وزارات الخارجية فى الدول فانتهزت تلك الفرصة السانحة ، فرصة اضطراب شئون بنى الإنسان ، لتستعيد ما كان لها من سلطان فى سابق الأيام .

وبدأت الغارة على أحدث طراز ، فلم يسبقها بلاغ نهائى أو إنذار ، وكانت الطليعة مؤلفة من كتائب متنوعة من جيوش الحمى الوافدة (الأنفلونزا) وأنواع أخرى من الحميات المنهكة للقوى ، السريعة الانتشار التى لم يكن التغلب عليها مستطاعاً فى ظروف تلك الأيام ، فقد جاءت عقب حرب طاحنة لم تخب نارها إلا من زمن قليل . ذلك أن ما سببته الحرب من ضعف عام فى صحة الأهلين ، ناشىء من قلة الغذاء ورداءة نوعه واضطراب الخدمات الصحية وتدهورها ، قد أخلى الميدان لهذه الأوبئة الفتاكة تصول فيه وتجول ، فقضت على حياة ملايين من بنى الإنسان ، وأنهكت قوى من بقى منهم على قيد الحياة . وكان هذا الضعف العام أشد

---

(١) الحرب التى تصور وقوعها فى عام ١٩٤٠ ودامت حتى عام ١٩٤٩

خطراً من الموت نفسه . ثم تلت الصفوف الأمامية جراثيم الـكلرا والطاعون الدملي . وبعد خمس سنين من ذلك الوقت أو أكثر أى بعد أن ظن الناس أن العاصفة قد هدأت ، انتشر فى العالم مرض خبيث هو مرض الحمى المبقعة انتشاراً مروعاً .

وكان المعروف من قبل عن هذا المرض المجهول أنه لا يصيب إلا أنواعاً من القردة الأسيرة ، ولـكن يلوح أنه طرأ على جراثيمه تكيف فجائى ، أصبحت معه تلائم جسم الإنسان ذا الصلة القوية بأجسام القردة . ولعله قد وُجِد وَسيطٌ بين الاثنين أعد جراثيم هذه الحمى للجهوم على بنى الإنسان ، أو لعل الأوبئة التى انتشرت من قبل قد قضت على بعض العناصر التى كانت تقاوم هذه الجراثيم فى دم البشر . تلك أمور لا تزال كلها خافية علينا لأنه لم يكن فى ذلك الوقت أطباء أو علماء إخصائيون لديهم من الوقت مايسمح لهم بتدوين مشاهداتهم ، إذا ما اتسع وقتهم لهذه المشاهدات ؛ وكانت النشرات العلمية قد توقفت عن الظهور فى كل مكان .

وظهر الوباء أول الأمر بجوار حدائق الحيوانات فى لندن ، ثم انتشر منها بسرعة لا يتصورها العقل ، فشوه وجوه الناس وجلودهم ؛ وأصيبت الأجسام بحمى شديدة صحبها التهاب فى الجلد واضطراب فى الأعصاب عنيف يبعث فى المريض رغبة فى التجوال قوية لا يستطيع التغلب عليها ، ثم ينتهى المرض بأن تنهد قوة المريض الجسمية فلا يستطيع حراكا ، ويظل على هذه الحال حتى يفارق الحياة . ولم يكن الماء وحده هو الذى ينقل عدوى هذه الحمى ، بل كانت تنقلها أيضاً قطع الجلد التى يقتطعها المريض بيده من جسمه وهو لا يكاد يحس بما يفعل . وانتشر الوباء فى مشارق الأرض ومغاربها ،

بفعل الماء والهواء والمرضى أنفسهم أثناء تجوالهم الجنونى فى بداية المرض ، حتى أصيب به نصف سكان العالم . ويستدل مما وصل إلى علمنا فى هذه الأيام على أن كل من تعرض للإصابة به قد أصيب به فعلا ، وأن كل من أصيب به قد قضى نحبه .

وبلغ هذا الوباء العالمى غايته فى الأشهر الثمانية عشر الرهيبة ، بين شهرى مايو ونوفمبر سنة ١٩٥٦ . وكان هذا الشهر الأخير بداية شتاء قاس زمهرير ، ولكنه أنقذ البقية الباقية من بنى الإنسان . ولم يعرف للمرض حتى الآن دواء ناجح يستأصل شأفته ، بل لم يعرف له دواء يخفف من حدته ؛ ومن أجل هذا انتشر بسرعة البرق فى جميع أنحاء الكرة الأرضية ، ثم اختفى بنفس السرعة وبالطريقة المجهولة اللتين ظهر بهما ، ولا يزال أمره سراً خفيا لم يهتد إليه علماء الأمراض . وأغرب ما عرف من أمره أنه لا يصيب البقية الباقية من القردة التى لم يقض عليها . ومن أجل هذا لا يستطيع العلماء الباحثون أن يزرعوا جراثيمه ، أو أن يجروا عليها التجارب . لقد جاء المرض ، وفتك ، وانقضى ، وكأنما قضى آخر الأمر على نفسه بنفسه بما خلفه فى الأجسام من عناصر مقاومة غير معروفة . وقد لا يكون المرض — كما يظن بعض العلماء — هو الحمى المبقعة نفسها ، بل مجرد الاستعداد للإصابة بها ، وانتشار هذا الاستعداد نفسه على غير علم من الناس فى العقد الخامس من القرن العشرين ، أى أن الذى فتك بالناس وقضى على حياتهم لم يكن المرض بل الضعف العام الذى حل بالأجسام عقب هذه الحرب .

والتاريخ فى هـذا كذاكرة الناس ، سرعان ما تمحى منه التجارب المؤلمة ، ولهذا كان من أسخف الأقوال التى يرددها بعض الناس قولهم إن الأمة التى لا تاريخ لها أمة سعيدة ، إذ الحقيقة عكس هذا تماما ، فالمراحل التى تكون فيها الأمة ساكنة رخية هى التى تخلف وراءها فيها مادة تكفى لكتابة تاريخها . وشاهد ذلك أننا نعرف فى تاريخ مصر الشىء الكثير عن الحياة الاجتماعية الراقية خلال عهود العظمة والرخاء ، وأننا نعرف الكثير أيضاً عن عظمة أشور وفتوحها . أما أيام الهزائم الحربية فإنها لا تخلف وراءها إلا أكواما من الرماد . وتحدث أيام الأوبئة التى تجتاح البلاد ثغرات فى سجلاتها . لسنا ننكر أن لدينا قصة ممتعة عن الطاعون الذى فشا فى مدينة لندن عام ١٦٦٥ ، كتبها دِفُو Defoe (١٦٥٩ — ١٧٣١) ؛ ولكن من واجبنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه القصة قد اصطنعها وكتبها وجمعها كاتب ألمعى بعد أن مرت على حوادثها عدة سنين ، وأن هـذا الكاتب نفسه لم يكن ممن شهدوا حوادثها . ولا ننكر أيضاً أن لدينا صورة شائقة لطاعون روما رسمها رفائيل ، ولكن معظم الأوبئة التى حدثت فى العالم غادرته هى وضحاياها ، ولم يبق لها ذكر فى التاريخ . وكل ما عنى به المؤرخون هو ما أعقبها من تقلقل واضطراب اجتماعى واقتصادى . هذا هو الذى يطنبون فيه ويفصلون فيه القول تفصيلا ، أما الذى مات فقد مات إلى غير رجعة . ولقد خلَّفت لنا فترة الرخاء التى عمت العالم فى أثناء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طائفة كبيرة من المعلومات المدونة عن خلق تلك الأيام الذين لم يعرفوا ما حل بالإنسانية من بلاء إلا من أحاديث الناس ورواياتهم الشفهية ، والمذكرات

والصور الشمسية واليدوية وما إليها من الوسائل . أما سنتا ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ اللتان لم يمض عليهما إلا قرن وثلث قرن أو أكثر قليلا ، واللتان تعدان من غير شك أقسى مامر على الجنس البشرى من عهود ، فلا نكاد نجد عنهما رسالة أو صورة أو كتاباً أو صحيفة سيارة ، تلقى عليهما شيئا من الضوء . وقد أتلف كل ما كتب فى هاتين السنتين خشية أن ينشر العدوى بين الناس فيما بعد ، ولذلك كان من أصعب الأشياء على الكتاب الذين جاءوا بعدئذ أن يصوروا ذلك العهد تصويراً صحيحا .

ويخيل إلينا أن ما وصفه به كيبل Cable وناش داث Nash Dath وبودسكو Bodesco ، ومرتينى Martini لا يختلف كثيراً عن الحقيقة ، ولهذا فإنا نشير على القارئ بالرجوع إلى هذه القصص التى تصور حال القرى والبلدان الصغيرة والكبيرة فى تلك الأيام . لقد تكدست فيها جثث الموتى من رجال ونساء ، ولم تجد من يواريها التراب ، فأخذت تنهشها جماعات من الكلاب الكلبة ، والقطط المتوحشة ، وخرجت الآساد فى الهند والنمورة فى إفريقية تجوب الطرقات المقفرة ، وانطلقت الخنازير البرية فى البرازيل تلتهم الأموات من أهل البلاد ، فتضاعف عددها مرات ، وانتشرت الجرذان واستوحشت فكانت لا تخشى مهاجمة الأحياء .

وكان من أشد ماروع الأحياء تجوال المرضى بينهم ، وكان وصف منظرهم أعظم ما استرعى انتباه الكتاب . ومما جاء فى هذا الوصف أن أحداً لم يستطع أن يقنع أولئك المرضى بالبقاء فى دورهم أو فى المستشفيات ، وأنهم لم يمنعهم شىء من دخول المدن والدور التى ظلت إلى ما قبل دخولهم فيها بمنجاة من الوباء . وارتاع الناس من هؤلاء المرضى الجوابين ، فكانوا

يطلقون الرصاص عليهم إذا اقتربوا منهم فقتلوا منهم عدة آلاف . وذلك عمل يروعنا نحن الآن كما يروعنا مافعله ركاب قوارب النجاة الذين نزلوا من الباخرة العظيمة تيتنك Titanic عندما كانت تغوص فى اليم بعد اصطدامها فى عام ١٩١٢ بجبل من الجليد . فقد أخذ هؤلاء الركاب يضربون على أيدى الغرقى من الرجال والنساء الذين تعلقوا بقوارب النجاة وعرضوها لخطر الغرق . ذلك أن الناس فى مثل هذه الأحوال الموئسة لا يطيعون دوافع الإنسانية . وكذلك كانت حال الذين قاوموا عدوى الحمى المبقعة وهى التى تقضى على المريض أو تكسبه مناعة دائمة ، فقد استسلموا لنوع من اليأس والكراهية لمن كان حولهم من المرضى القذرين ، ولم يحاول أحد أن يحتفظ بهدوئه ، ويستمسك بالنظام ، ويقوم بما يجب عليه فى مثل تلك الأحوال ، إلا طائفة قليلة من الأطباء ورجال الدين والشرطة . واندفعت طائفة كبيرة من الناس يسلبون وينهبون . ويخيل إلينا مما وصل إلينا من الأخبار أن النساء كن بوجه عام أحسن سلوكا من الرجال ، وإن كان بعض من انضم منهن إلى الرجال قد ضربن لهم فى النهب أسوأ الأمثال .

وهبت العاصفة ثم سكتت ، ففى شهر يناير من عام ١٩٥٧ كان الناس يجوبون المدن المقفرة ، ويدخلون البيوت الخالية ، ويعودون إلى أوطانهم المهجورة ، يطوفون بالطرقات التى تكدست فيها عظام الموتى المفككة المختلطة أو المتماسكة ، وهم لا يكادون يصدقون أن غضب الطبيعة قد زال ، وأنهم لا تزال أمامهم بقية من الحياة .

وكان ماحل بالإنسانية من بلاء من جراء حرب الغازات لا يكاد يذكر إذا قيس إلى ما أصابها من غارة الجراثيم ، فلقد قضت هذه الغارة على نصف سكان العالم بأكمله .

سمو المقصد

بقلم

هـ . ج . ولز

من وصفه للعالم فى سنة ٢١٠٥

٢٢

إن الرجل العادى فى هذه الأيام أكبر سنا وأوفر عقلا من سلفه الذى كان يعيش على الأرض من ثلاثة قرون ، وهو إلى هذا كله يعمل فى غير ما كان يعمل فيه آباؤه الأولون ، فلم يبق أهم مايسعى إليه الآن أن يحصل على ضرورات الحياة من طعام وشراب ولباس .

لقد كان أكثر من تسعين فى المائة من سكان العالم من ثلاثة قرون مضت منصرفين إما إلى إنتاج ضرورات الحياة أو الاقتتال عليها لانتزاعها من منتجيها الأولين ، وكان هؤلاء المنتجون الأولون كالزراع والعمال هم وأصحاب المشروعات الكبيرة ومديروها ، والمهيمنون عليها ، والموزعون المباشرون للإنتاج ، كان هؤلاء يبلغون أكثر من ثمانين فى المائة من سكان العالم . وكان الباقون هم ملايين الوسطاء والمرابين ، والملاك ، وكبار المستأجرين ، والمحامين ، والمضاربين ، والطفيليين ، واللصوص وقطاع الطرق ومن إليهم ممن كان وجودهم يعد لازما لتسيير الأداة الاقتصادية فى تلك الأيام . وكان رجال القانون والتعليم وحفظة الأمن — غير الجند على اختلاف مراتبهم وأنواعهم — يؤلفون خمسة أو ستة فى المائة من الباقين . وكانت هناك أقلية ضئيلة لاتبلغ خمسة فى المائة من مجموع سكان العالم ، تصرف

جهودها فى الفن ، والبحث العلمى ، والتفكير السياسى والاجتماعى ؛ وكانت هذه الطائفة القليلة هى الروح الحى فى جسم الهيئة الاجتماعية بأجمعها .

ومعنى هذا أن الكثرة الغالبة من الناس كانت عنايتها كلها منصرفة إلى العمل على إنتاج ضرورات الحياة والاقتتال عليها ، وكان أهم مايشغل بال أفرادها أن يفكروا على الدوام فيما يعود عليهم هم أنفسهم بالكسب ، أو فيما يعود على من يستخدمونهم بالنفع أو اللذة الحقيقية أو الموهومة ؛ وكان عليهم فوق ذلك أن يفكروا فى الاحتفاظ بعملهم ، أو الحصول على عمل جديد ؛ وكان لهذا التفكير فى أيام التعطل الذى لازم عهود الكساد أسوأ الأثر فى عقول الناس . وإلى هذا كله كان عليهم أن يفكروا طويلا فى إنفاق ما يكسبون ، فكانوا ينفقونه على حذر أو يدخرونه لأوقات الضيق ؛ ذلك بأن رجال الأعمال الجشعين كانوا فى كل مكان يعملون جاهدين ليأخذوا ولا يعطوا . وكانوا إذا ضاقوا ذرعا بحياتهم الضيقة دفعهم اليأس فى بعض الأحيان إلى المقامرة ، لعلهم يحصلون بها على كسب عاجل وإن يكن غير شريف ؛ ولكن المقامرة كانت تنتهى عادة بالخيبة والندم . فإذا أضفت إلى هذه المتاعب قليلا من الحب ، وكثيرا من الكره ، وكفاحا شديداً بين الفرد منهم ونفسه ليخدعها ويصور لها هذه الحياة فى صورة شريفة تبعث على الأمل ، ورغبة ملحة فى التفاخر والملق ، إذا أضفت ذلك كله إلى هذه المتاعب كان منها مايشغل عقول تسعة وتسعين فى المائة من بنى الإنسان الذين يتألف منهم سكان العالم فى عام ١٩٣٠ ، وكانت هذه الكثرة عاجزة عن الخروج من هذه الدائرة الضيقة دائرة المصالح العاجلة المتضاربة المتنافرة التى لا تسمو فوق حاجات الحيوان الأعجم .

فلما قامت الدولة الحديثة[1] حطمت هذه الدائرة التى كان ينحصر فيها اهتمام بنى الإنسان على بكرة أبيهم . نعم إننا لا نزال كما كنا خلائق ذوى عقول لا تختلف فى تكوينها عن عقول آبائنا الأولين ، ولكننا لا نستخدمها فى الأغراض التى كانوا يستخدمونها فيها . فقد ضمنت الدولة الحديثة الوفرة والرخاء لجميع سكان العالم ، وسيطرت على نسلهم ، فحملت عنهم عبء السعى فى طلب القوت ، وأراحتهم منه ومن النزاع عليه ، وامتنع التنافس القتال بين أصحاب المهنة الواحدة ، ولم يعد هذا كله يشغل بالهم ويستغرق معظم تفكيرهم ؛ وأصبحت طائفة من العمال الإخصائيين قليلة العدد نسبيا تسيِّر الأداة التى تؤدى هذه الأعمال الأولية . أما سائر الناس فلم يعودوا يهتمون بأمر طعامهم وشرابهم وملبسهم ، وصحتهم وحريتهم ، وأضحى العمل الذى نلزم بأدائه غير مرهق فى مقداره ونوعه ، كما أضحى هو العمل الذى يرى المشرفون على شئون التربية أنه أكثر الأعمال ملاءمة لمن يقومون به . فإذا ما أديناه لم يكن لدينا شك فى الحصول على ثمرته ، ذلك أنه لم يعد فى العالم من يغشنا أو يسلبنا أجرنا . نعم إن المنافسة لا تزال قائمة بيننا ، وقد تكون الآن أعظم مما كانت من قبل ، ولا تزال نفوسنا تتنازعها عوامل الغيرة والشهامة ، ولكن شعور كل منا بأن عليه أن يعنى كل العناية بعمله أصبح الشعور المسيطر عليه . ولم يعد الإنسان يدفع إلى العمل دفعا ، وأصبح الغرض من التنافس القائم بيننا هو التفوق والرغبة فى كسب تقدير الناس وإرضاء الضمير ؛ ولم يعد للمنافسة فى الإيذاء وجود ، وقد تحرر بذلك الجزء

---

(١) الدولة الحديثة التى يتصورها ونز ويدعو لها هى التى تشمل العالم بأجمعه .

الأكبر من الجهود العقلية البشرية التى كان الرجل العادى يوجهها فى أمور لابد له من توجيهها إليها .

وليس شيء أدل على انصراف العقول عن هـذه الدوافع الأولية من الإحصاءات التى تصدر عما كان يسميه النـاس من قبل « الجريمة والعقاب » أى الأرقام الدالة على مايرتكبه الناس من مخالفات وخروج على القانون ، واعتداء متعمد على النظام الاجتماعى ، وما يتبع ذلك من عقوبات وأعمال تأديبية ؛ وهذه الإحصاءات تصدر الآن عن « مراقبة السلوك » . وليس لدينا الآن شيء منها عن سنى الاضمحلال السالفة الذكر ؛ ولـكن فى حوزتنا معلومات جمة عن سنى النظام والرخاء النسبى الذى حل بين عامى ١٨٩٠ ، ١٩٣٠ . لقد كانت إنجلترا فى هذه الفترة خير بلاد العالم من هذه الناحية ، وأكثرها إطاعة للقانون . ولـكن المؤرخ الذى يطلع على هذه الإحصاءات لا يتردد فى الحـكم بأن هـذه البلاد نفسها كانت مرتعاً للمجرمين . فالتلصص ، والغش بكافة أنواعه ، والتزوير والسطو والسرقة بالإكراه ، والتسميم وغيره من وسائل القتل ، كانت تحدث فى كل يوم ؛ وكان يبدو أن الاعتداء الشنيع على الملك لم ينقطع دابره بحال ، وكانت حوادث الانتحار الناشئة من المتاعب المالية من الحوادث المألوفة . أما الآن فقد امحت ، أو كادت تنمحى ، هذه الجرائم التى كانت تغص بمرتـكبيها السجون ، والتى كانت تقترف كلها من أجل الاقتتال على الملك والمال فى عصر الضـيق ونقص الثمرات . ويدل تقرير « مراقبة السلوك » عن سنة ٢١٠٤ (لأن تقريرها عن سنة ٢١٠٥ لم يظهر بعد) على أن حوادث السرقات فى العالم

كله لاتزيد عن ٧١٥ حادثة ، وكان المسروق فى كل حادثة منها تقريباً عملا من أعمال الفن ، أو قطعة صغيرة من الحلى أو القماش المطرز ، أو حيواناً مدللا . وكانت هناك حادثة واحدة بُلِّغ فيها عن سرقة زهرة من نوع جديد أثارت فى السارق غريزة امتلاكها ، والرغبة فى العناية بها . ولا يكاد الإنسان يظن أن ثمة سرقات أخرى كثيرة لم يبلغ عنها أو لم يعرف مرتكبها . والذى يستخلص من هذا أن طبيعة الإنسان بعد أن كانت آثمة على الدوام أصبحت لا تميل إلى الإثم إلا فى قليل من الأوقات . ومن واجب علماء النفس الاجتماعيين فى هذه الأيام أن يعملوا ما استطاعوا للقضاء على ما يثير فى النفوس هذه البقية الباقية من الميول الإجرامية .

وكانت نتيجة هذه الوفرة فى النشاط العقلى ، المترتبة على الوفرة المادية ، أن وجه هذا النشاط وجهة جديدة ، فقد استحال العدد الضئيل من العمال المبتكرين الذين كانوا فى العهد القديم لا يزيدون على نصف فى المائة من سكان العالم بل ينقصون عنه ، ومن المفكرين المولعين بكل جديد ، ومن ذوى اليسار والفراغ الذين يصرفون أوقاتهم فى جمع التحف العزيزة النادرة ، استحال هذا العدد الضئيل إلى طائفة كبيرة قوية من الباحثين والمجربين والمحققين والمسجلين ، تشمل الآن الكثرة الغالبة من سكان العالم .

وقد أصبحنا الآن نعلم علم اليقين ما لم يكن يدور بخلد أسلافنا فى القرن العشرين ، وهو أن العقل البشرى ، إذا تحرر من الجوع والخوف وما إليهما من وسائل الإكراه البدائية ، لا يشغله التفكير المنتج المبدع فحسب ، بل تشغله أيضاً دوافع الرحمة ببنى الإنسان ، والرغبة فى إسداء المعونة لهم ؛ وشاهد ذلك أن الذين يشرفون الآن على عوامل الإنتاج والتوزيع والنقل

يؤدون عملهم لأنهم يجدون فيه لذة ومتعة ، ولأنهم يحبون أن يروا الأداة التي يشرفون عليها سائرة على أحسن نظام ، تنتج أكثر ماتستطيع إنتاجه من الطيبات لبنى الإنسان . وهم يجدون راحة البال ورضاء الضمير إذا رأوا أن فى مقدورهم أن يحذقوا ما يؤدونه من الخدمات لغيرهم من الناس ، وإن لم يحذقوا أداءها لأنفسهم . فالحلاقون وصانعو الأحذية والملابس وأمثالهم ممن يعملون فى المتاجر الكبيرة يختلفون الآن كل الاختلاف عن أمثالهم القدامى الخاضعين المتذللين ، الذين كانوا يحملون أسلافنا فى عيون الناس . فهم الآن يوجهون كل عنايتهم إلى تجميل عملائهم ، ويحرصون على راحتهم ، لا على كسب المال لمن يستخدمونهم . لقد كانت الآداب القديمة ملأى بألفاظ الاحتقار للحلاقين وصناع الأحذية والملابس ، وكان احتقاراً ممتزجاً فى غالب الأحيان بالكراهية والغيظ ؛ وكان الحذَّاء يقتص من عميله الذى يزدريه بأن يضيق الحذاء على أصبعه وعقبه ؛ ويخيل إلينا أنه هو وصانع الملابس لم يكونا يعملان أكثر من تقطيع الشعر والقماش . وقلما كان الإنسان يقوم من أمام الحلاق غير مثخن بالجراح . أما حلاق هذه الأيام فهو رجل يختلف عن سَمِيِّه فى الأيام الماضية ، فهو حلاق وطبيب أسنان ، يزين رؤوسنا ويعنى بأسناننا ، ويفحص أفواهنا وشعرنا وجلدنا ، ليكشف عما عساه أن يكون فيها كلها من أمارات الضعف ، فنخرج من عنده منتعشين مستبشرين أو محذَّرين . وكثيراً ما يزورنا صديقنا صانع الملابس ليطلع على مظهرنا العام ويرشدنا إلى ما يصلح من هيئتنا بتغيير بعض عاداتنا أو ضروب رياضتنا .

وقد زالت الفوارق الحادة التى كانت تفصل بين حرف التوزيع والمهن

الاستشارية ، فهى الآن على اتصال دائم بالمشرفين على الرقى والتطور ، وهم الذين حلوا محل المعلمين والمربين والمربيات وأمثالهم وأمثالهن من رجال العهد القديم ونسائه ؛ كما أنهم أيضاً على اتصال وثيق بالمستشارين العامين الذين يقومون الآن بأعمال محامى الأسر وقساوستها ووكلائها ومن إليهم . وتبلغ نسبة الذين يعملون فى هذه المهن الاستشارية والتوجيهية إلى جميع السكان ضعفى نسبة المحامين والمعلمين والأطباء إلى سكان العالم فى القرن التاسع عشر أو ثلاثة أضعافها . وهؤلاء أيضاً يمتون بصلة وثيقة إلى طائفة أخرى وهى طائفة المدرسين الإخصائيين الذين يعملون فى تنمية ضروب الحذق والمهارة ، ورفع مستوى التفكير العام ، حتى يمتزج أفرادها برجال الأعمال الفنية ممن يشتغلون بالفنون الجميلة والآداب الرفيعة والبحوث العلمية .

ويؤدى المنتجون الأولون والزراع والمهندسون والكيميائيون ورجال النقل ومديرو الصناعات واجباتهم وهم راغبون فى أدائها ، راضون عنها ، مغتبطون بها ، يحبون المادة التى يعملون فيها ، ويحبون ما يواجههم فيها من الصعاب ، ويحبون النظام السائد فى أيامهم . ولم تزد نسبة هذه الطبقة إلى سكان العالم على ما كانت عليه فى العهود القديمة رغم الزيادة المستمرة فى نصيب الفرد من طيبات العالم ، ورغم التحسن المستمر فى نوع هذه الطيبات . ذلك أن الحذق والإتقان يزدادان كلما زادت الحاجات والرغبات ، وينتفع بالمدة التى يلزم الناس جميعاً بقضائها فى الخدمة الإجبارية وقدرها سنتان ونصف سنة — وهى جزء أساسى من نظام التربية فى هذه الأيام — فى القيام بجزء كبير مطرد الزيادة من الأعمال المجهدة التى لم يتيسر الاستغناء عنها بعد .

ويبدو أن تحرر الجهود البشرية من حاجات الإنسان الأولية سيستمر إلى ماشاء الله ، وأن جميع القوى التى شكلت حياتنا الاجتماعية فى جميع أنحاء العالم ، والتى لاتزال تسيرها فى طريقها المرسوم ، تسخر هذا النشاط المحرر لكسب علم جديد وتجارب جديدة . وكذلك تسمو مقاصد الإنسان وغاياته فيصبح أشد رغبة فى المعرفة ، وأكثر جرأة ومهارة ، وأعظم حبا لعمله على مر السنين . وكلما زاد علمنا بما فى العالم من خيرات ، ومافينا نحن من قوى مكنونة ، زاد ثراؤنا ونعيمنا ، ولم يبق لدينا شك فى أن هذا الكوكب ، الذى كان يبدو فيما مضى قاسيا ضنينا على بنى الإنسان ، رحيم خيِّر لاتنفدُ رحمته ولا نعمته . على أن أعظم ما كشفه الإنسان فى هذا العصر الحديث كشفه حقيقة نفسه ومافى وسعه أن يسمو إليه . لقد كان ليوناردو دا فنشى Leonardo da Vinci [1] بما وهب من سعة الفكر والرغبة فى الابتكار والتطلع إلى المعرفة والقدرة على العمل المنتج — كان من طلائع الإنسان الجديد الذى يعيش على الأرض فى هذه السنين .

---

(١) ليوناردو دا فنشى . Leonardo da Vinci (١٤٥٢ — ١٥١٩) مصور ومثال ومهندس وموسيقى إيطالى مشهور . أهم مابقى من آثاره صورة « العشاء الأخير » فى ديرسانتا ماريا وصورة موناليزا Mone Lisa المحفوظة فى متحف اللوفر ، وله عدة صور أخرى فى متحف اللوفر والمتحف البريطانى .

حلم صياد

بقلم

چون جولزورذى John Galsworthy

١٨٦٧ — ١٩٣٣

[تخرج فى أكسفرد وتعلم القانون ، ولكنه فضل الاشتغال بالأدب ، فكتب عدة روايات يصور فيها الحياة فى عصر الملكة ڤكتوريا والملك إدورد السابع ، ونشر فى عام ١٩٢٤ ثلاث روايات صور فيها الحياة فى لندن بعد الحرب الكبرى الماضية وأتبعها بعدة روايات أخرى كلها من خير ما أخرج فى العصر الحديث .

وكتب جولزورذى مقالات أدبية كثيرة فى المجلات الأدبية ، معظمها فى موضوعات اجتماعية وأخلاقية ، وتمتاز كلها بالعطف على الإنسانية ، وبالتفكير الحر غير المقيد بالتقاليد ، وبالصراحة فى نقد الزعماء الذين كانوا يسيرون دفة الأمور فى أثناء الحرب الماضية .

وجولزورذى كاتب مسرحى ذائع الصيت ، وهو يستمد حوادث مسرحياته من المشاكل الاجتماعية والأخلاقية القائمة فى الوقت الحاضر ، ويحاول فيها كلها أن يبرز الآراء المتعارضة على لسان أشخاص الروايات . وهو أول من عنى من كتاب المسرحيات المحدثين بجعل لغة الحوار فى مسرحياته هى اللغة العادية التى يتخاطب بها الناس فيما بينهم دون تكلف ولا تنميق ، ولهذا فإن مسرحياته تلذ ناظرها على المسرح أكثر مما تلذ قارئها] .

٢٣

خرجت فى صباح يوم من أيام شهر أغسطس الماضى ، وفى جيبى عدد من الشطائر المحشوة بلحم الدجاج ، وفى يدى إحدى المجلات ، واتجهت فى سيرى نحو مكان من أمكنة الصيد التى كنت أقصدها لهذا الغرض فى أيام الشباب . وكان الجو صافياً واليوم دفيئاً ، أو إن شئت فقل حاراً شديداً ، وخلع هذا على المكان جمالا لم يكن له من قبل ؛ وكانت الأرض مكسوة بالخلنج والسرخس والكلأ الأبيض فى لون القطن المندوف ، واللبد البنانى القاتم ، وأشنة المستنقعات الخضراء ، وكانت هذه كلها تتلألأ تحت قبة السماء الصافية الزرقاء . وأعجبت بجمال المكان فانطلقت أسير فيه وحدى إلى ما بعد الظهيرة بساعتين ، ثم جلست عند ثنيَّة صغيرة ببطن الوادى ، يسيل بجوارها مجرى صغير من الماء ينبع من عين فى أعلاه . وبقيت على هذه الحال فترة من الزمان لا يعكِّر هدوئى فى أثنائها شىء ، حتى حلق طائر فى الجو وأخذ يرفرف بجناحيه ، ثم بدأت آكل شطائرى ، فسمعت عصفوراً يسقسق ثم رأيته يرتفع عن الأرض أمامى ، ويدور فى الجو حول رأسى ، ثم يختفى عن عينَى فى زرقة السماء ، فأذكرنى هذا أيام الشباب التى قضيتها فى الصيد فى هذا المكان . وبعد أن فرغت من طعامى القليل أشعلت لفافة ، وفتحت المجلة ، وأخذت أقلب صفحاتها فى هدوء وقلة اكتراث . ولم أكن شديد الحرص على القراءة ، فقد كان الأثر الذى أحدثه فى نفسى هدوء المكان وسكونه أقوى من أن يسمح لى بالتفكير فى غير هذا المنظر الجميل . لكن قصة مثيرة من القصص التى كانت تحتويها المجلة استرعت التفاتى ، وهى قصة أسدين من أكلة اللحوم البشرية ، فبدأت أقرأ ولم أضع المجلة من يدى

حتى انتهيت إلى موت الوحشين الضاريين . وشعرت بنار اللفافة تحرق إصبعى ، فأطفأتها فى الأرض الرطبة ، واستلقيت على ظهرى ، وعيناى تنظران إلى السماء ، أو قل لا تنظران إلى شىء ، وعقلى لا يفكر فى شىء .

ثم خيل إلىّ فجأة أنى أرى فى الجو ثلاث حمامات تحوم فوق رأسى ، وتهبط نحوى ، وحسبتها تقترب بعضها من بعض ، ثم تعود فتبتعد . وبدا لى كأنى أسمع حديثها وإن كنت لم أفهم منه شيئاً . ولم يلبث هذا الظن أن أصبح يقيناً ، فقد وصل صوتها إلى أذنى وسمعتها تقول : انظروا إليه ، انظروا إلى الوحش الضارى ! أنظروا إليه ! .

وارتعت لهذا الحادث الخارق لجميع قوانين الطبيعة المعروفة ، فأخذت أرهف أذنى وعندئذ سمعت قطاة عجوزاً تقول فى وضوح « ارجع . ارجع » فأدرت وجهى فى حذر نحو مصدر الصوت ، فرأيت القطاة لا تبعد أكثر من عشرين متراً عنى . ولم أصدق أول الأمر حواسى ، لأنى كنت أعرف أن كل ما بذل من الجهود للمجىء بالقطا إلى هذا المكان قد فشل لأسباب ترتبط بطبيعة الأرض ورطوبة الجو ، لكن هذا الشك زال على الأثر حين سمعت القطاة تنادى فجأة . انظر إليه ! عد إلى مكانك ! إنه الوحش الضارى ! عد إلى مكانك ! ، وخيل إلىّ أنها تتحدث إلى شىء آخر فى أسفل الوادى غير بعيد عنها . وما كان أشد دهشتى حين رأيت لأول مرة أرنبا برياً فى هذه البطاح . فقد كنت أعتقد على الدوام أن الأرنب البرى حيوان ظريف لا يشترك فى هذا الحديث الذميم ، وكثيراً ما كان يحزننى أن أصيب ذلك الحيوان فى أثناء الصيد ، لأنه يئن كأنين الطفل إذا لم يقض نحبه على الفور ، ولهذا فإنى حين سمعته هو أيضاً يقول: « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش

الضارى ! انظروا إليه » ، سرى فى جسمى شعور شبيه بشعور المظلوم الذى يؤخذ بجريرة غيره .

وفى هذه الساعة عينها أحسست بتيار من الهواء دفیء ، ورأيت على بعد قليل منى ديكا فخما جميلا لا يفترق فى شيء عن ذلك الديك الذى صدته فى الموسم الماضى ، والذى يزين ذيله قبعة زوجتى إلى هذا اليوم . وشاهدت معه أربع دجاجات من جنسه ، سنجابية اللون ، وقد اجتمعت كلهـا فى نصف دائرة من حوله وأخذت تصيح فجأة : « انظروا إليه ! انظروا إليه ! » ولست أخفى على القارىء أننى فى هذه اللحظة ندمت على ما فرطت فى قتل ما كان يصادفنى من الدجاج السنجابى حرصاً منى على الإكثار من نسله كما يفعل الصيادون الحقيقيون .

وظللت بضع دقائق حائراً مندهشاً ، لا أكاد أدير وجهى فى ناحية من النواحى حتى أرى بالقرب منى طائراً من الطيور الكثيرة التى مرت علىّ فى أثناء حياة الصيد الطويلة فى بلادنا كلها ، ويكاد عددها يقرب من عدد ما صدته طوال أيامى الماضية ، وقد جلست كلها فى دائرة كبيرة تحرك مناقيرها يمنة ويسرة ، كما تفعل طيور البطريق Penguin فى الأشرطة التى يصورها لنـا رواد الأقاليم القطبية الجنوبية ، وهى تردد كلها هذه العبارة البغيضة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! »

واشتد عجبى حين رأيت وراء هذه الدائرة الواسعة من الطير جماعات من الحيوان المستوحش مختلفة الأجناس . رأيت ما لا يقل عن خمسة أنواع من الظباء ، بعضها من حيوان هذه البـلاد وبعضها مما شاهدته فى أمريكا ، وما صدته على ظهر الخيل فى مراعى جنوب أفريقية ، واتخذتُ من لحمه

طعاماً شهياً ، ومن جلده زينة وفراشاً وثيراً . ورأيت الضبع الذى كدت أخطئه ، والذى غضبت حين رأيته يقوم بعد أن أطلقت الرصاص عليه .

ولم تتخلف الأرانب البرية بطبيعة الحال ، بل جاءت جماعات منها تعد بالمئات ؛ ولم أكن أعرف حتى هذه الساعة أنى صدت منها هذا العدد الكبير ؛ وكل ما أذكره أنى لم أكن أعنى كثيراً بصيدها ، وأن ألذ المناظر عندى أن أراها تنطلق جماعات حين تسمع دوى البنادق . وشاهدت بين هذه الحيوانات النعامة التى طاردتها حتى صرت على بعد نصف ميل منها ، ثم رميتها ، ولم أدر بعد ذلك ما حل بها فقد اختفت وراء الأفق البعيد .

وكان بجوار النعامة الدبة التى شاهدتها بقرب عرينها ، وإلى جانبها فهدان صغيران . فلما أبصرتنى اختبأت بين الأعشاب ، ولكننى رميتها محاذرا أن يصيب الرصاص الفهدين الصغيرين ، ثم رأيتهما يتسلقان الشجرة الكبيرة التى كانا من تحتها ، ويختبئان بين الأغصان لينقضا على ما أتركه ورائى من الظباء والضأن والكلاب والخنازير وغيرها من الحيوانات . ولست أدرى لم أقبلا فيما أقبل من الحيوان ، مع أنى لم أصبهما بأذى ، ولكنهما جاءا ما فى ذلك شك ، وأخذا يتفرسان فى وجهى بعيونهما الزرقاء القوية . وجلس إلى جوارهما قط برى صغير لا يزيد كثيرا على حجم ابن عرس ، ولكنه كان مقطوع الرأس . وتذكرت أنى صدته حين كنت أختبر البندقية الجديدة الصغيرة التى استعرتها من صديق فى إحدى الرحلات ؛ وكان هذا القط جالسا فوق جحره بعيدا عنى ، يجهل ما كان يحدق به من الخطر ، فأطلقت الرصاص عليه ، وكانت طلقة قوية ذهبت برأسه ، فسقط المسكين من فوره فوق جحره . وإنى لأذكر الآن ماشعرت به أنا ورفاقى من فرط السرور حين أصبته .

ورأيت فى خارج الحلقة ثعالب تسير وحدها بعيدا عن سائر الوحوش المستقرة فى أماكنها كأنها تخشى أن تعلم الحيوانات الأخرى أننى صدتها ؛ وكان من بينها ثعلب صغير أعرج يمشى على ثلاث أرجل ، وهو الثعلب الذى أعطيتُ ساقَه وأنا طفل لأحتفظ بها فيما أحتفظ به من التمائم ؛ وقد وضَعت هذه الساق فى صندوق قبعتى ونسيت كل شىء عنها حتى نتنت ، ورأيت ألا بد من التخلص منها هى والصندوق جميعا . وكان بالقرب من هذا الثعلب طائفة من الثعالب الكبيرة لم تر من اللياقة أن تجلس مع الثعالب الصغار .

وجملة القول أنه قد احتشدت فى تلك الساحة جموع كثيرة من الطير والحيوان شملت كل ما صدته منها فى حياتى ، أو كنت السبب فى مقتله بطريقة ما ؛ ورأيتها كلها تنظر إلى وتتهامس قائلة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! » .

وآلمتنى هذه الألفاظ وأحفظت قلبى على هذه الحيوانات ؛ وكنت كسائر الصيادين كثير العطف عليها ؛ فإذا كان هناك ما نفخر به نحن الصيادين ، ونفخر به بحق ، فهو ما تنطوى عليه صدورنا من شفقة على جميع أنواع الحيوان والطير ؛ وليس فى الناس كلهم من لا يعرف أننا أكثر الناس حرصا على تخفيف ما تعانيه من آلام لا ضرورة لها .

وأخذ حديث هذه الجموع يعلو شيئا فشيئا ، ويزداد وضوحا كلما اعتدت سماعه ؛ وكان أول ما تبينته منه قول السمانى : « لقد أكلنى ما فى ذلك شك ، وما من شك أيضا فى أنه قال إننى طعام شهى » وقال أرنب كان هو أول من نطق من الأرانب : « لست أظن أنه صادنى لهذا السبب . لقد أطلق

الرصاص علىّ وقتلنى ولكنه لم يمسسنى بيده ، وصاد فى نفس اليوم أحد عشر زوجا من الحَجَل ، أليس كذلك ؟ » ونطقت اثنتان وعشرون حجلة بصوت واحد قائلة : « بلى ! » ورد عليها الأرنب قائلا : « لم يأكل منكن إلا اثنتين — وهذا دليل على أنه لم يكن فى حاجة إلينا ليأكلنا » .

وسببت لى عبارة الأرنب شيئا من الراحة ، إذ كنت قد آلمنى ما عساه أن يفهم من قول السمانى إننى رجل نهم لا أصيد إلا حبًّا فى الأكل . ولست أشك فى أن كل صياد عارف بآداب الصيد ومبادئه السامية يوافقنى على هذا الرأى . »

ولما فرغ الأرنب من حديثه سرى فى الجمع كله لغط لم أتبين أول الأمر معناه ، حتى قال أحد الفهدين الصغيرين : « إننا معشر الوحوش آكلة اللحوم لا نقتل إلا حين نشعر بالحاجة إلى الطعام » وقالت الدبة : « إن الدببة لا تقتل شيئا تعجز عن أكله » ثم سمعْتُ بطة برية تقول : « أما نحن فنأكل كل دودة نعثر عليها ، وفى وسعنا أن نأكل أكثر مما نحصل عليه إذا وجدنا السبيل إلى ذلك » .

ثم علت فى الجمع تلك الصيحة الرهيبة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! أنظروا إليه ! » .

ولاح لى أنها كلها رغم كثرة عديدها تخشانى ، بل ترهبنى وتفزع من رؤيتى ، وأنا الرجل المحب للحيوان ، وليس معى الآن سلاح . ولشد ما آلمنى هذا وأقض مضجعى ، وقلت لنفسى : « كيف لا يدرك واحد من هذا الطير أو الحيوان معنى الصيد وحقيقته ؟ إنى ليخيل إلى أنْ ليس فيها كلها من يفهم تلك الغريزة التى تحبب الإنسان فى الصيد لما فيه من ... خطر » .

وواصل الأرنب حديثه قائلا : إن الثعالب تقتل حباً فى القتل . وما الإنسان إلا ثعلب » . فلما سمعت الثعالب هذا القول رفعت عقيرتها احتجاجا عليه ، وقام واحد منها ولعله كبيرها وقال : « لا جدال فى أننا نقتل أكثر مانستطيع قتله ، ولكننا لانتردد فى أن نحمل معنا مانقتل لنأكله إذا أمكننا الإنسان من حمله وأكله ، ولكنه لايمكننا منه — ذلك الوحش الضارى » .

إن الثعالب ماكرة خداعة ، ولكن أخبث ماسمعت من مكرها وخداعها قول كبيرها هذا إن الإنسان أشد منها فتكا وهو الذى يعرف بلا ريب كيف نحافظ نحن الصيادين على نسل الثعالب لنمتع أنفسنا بصيدها . وصاحت دُرَّاجة بصوت رفيع : « لقد قتل منا ستين فى يوم واحد ، ثم تركنا من فوره ولم يأكل منا جناحا » وعلت الصيحة الرهيبة مرة أخرى : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! »

ولم يكن شىء أسخف من هذا القول . كأنى بهم لايعرفون أن الصياد لايكاد يصيد إلا ليطعم غيره ؛ وكدت أرد عليهم ، ولكننى آثرت الصمت حين ذكرت أن الإيثار خلة يمتاز بها بنو الإنسان » .

وقال عصفور من عصافير الغاب : « إنهم يبيعوننا بثمن غال ، وبخاصة إذا صادونا فى بداية الموسم ، وقد اشتُريتُ أنا بعدة شلنات » . وقلت لنفسى : ألا ما أجهل هذه الطيور ! كأنى بها تعتقد أن الصياد الحديث يعرف ما يؤول إليه أمر صيده بعد يوم واحد من اصطياده ! إنه يترك هذا كله لرئيس خدمه ولحرَّاسه . وقال أرنب آخر : « لقد كان من حق بنى الإنسان على أن أقول إنهم ليسوا أسوأ كثيرا من الثعالب ، لولا أنهم كثيرا مايعذبوننا بتركنا نعانى آلام الموت ساعات طوالا . لقد

ظللت أنا أعانى سكرات الموت سبع ساعات كاملة ، وظل أخ لى يعانيها اثنتى عشرة ساعة . أليس كذلك يا أخى ؟ » وأومأ أرنب آخر برأسه مؤمنا على قوله وزاد عليه : « ولكن هذا قد يكون خيرا من اقتناصنا أحياء » .
وتمتمت حجلة قائلة : « ألاما أقسى الإنسان . إن الثعالب مهما بلغت قسوتها تفصل الرأس عن الجسم فورا ، أما الإنسان فكثيرا ما يكسر جناحك أو ساقك ثم يتركك على هذه الحال بقية أيامك » . وعلت فى الجو مرة أخرى تلك الصحية الرهيبة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! » ولم أعد بعدئذ أطيق صبرا على هذه الحال ؛ ولو أننى كنت أستطيع القيام لهجمت عليها وأعملت فيها . . . يدى ، ولكننى شعرت كأن أثقالا كالرصاص تربطنى بالأرض من تحتى ؛ وكل ما كان فى وسعى أن أفعله فى هذه الساعة أن أحمد الله الذى أخفى عنها — فى ظنى — حقيقة أمرى . فلو أنها عرفت أنى أعزل نكان لها معى شأن آخر لا أعرف ماهو ؛ ذلك أن عواطف الشهامة والمروءة ، كما نعلم كلنا ، ميزة اختص بها بنو الإنسان .
وردت عليها دجاجة ضخمة بصوت عال بطىء : « إنك طائر خواف سريع الهرب . ولقد حاول كثيرون غير هذا الإنسان أن يصيدونى ، ولكنهم لم يفلحوا ، ومع أننى قوية الجسم سريعة العدو فإننى لم أكن أنجو من إصابة أو اثنتين فى جسمى . وماذا كان فى وسعى أن أفعله عندئذ ؟ إن هؤلاء الوحوش من بنى الإنسان إذا أصاب بعضهم بعضا خطأ استطاعوا أن يخرجوا الرصاص من وجوههم وأيديهم ، ولقد رأيتهم بنفسى يفعلون ذلك . أما نحن فعاجزون عن هذا كل العجز . » وأجابتها قطاة بصوت حاد : « إن

الذى يضايقنا نحن معشر القطا أنه لا يأكلنا إلا بعد أن يكاد يشبع من غيرنا . لقد كان دورى أنا الدور الخامس ، وذلك يؤلم شعورى ويجرح كرامتى . »

« ما أقساه من وحش ضار ! إنه يقتل كل ما يراه » .

« وأحسست بالدم يغلى فى رأسى ، وهممت أن أصيح بأعلى صوتى : « أيها الوحوش . إنكم لاتعرفون أننا نحن الإنجليز الخُلَّص لانقتل كل مانرى ، وإنما يفعل ذلك الأجانب وأهل لندن » . ولكننى أحسست أنى عاجز عن الكلام كما أحسست من قبل أنى عاجز عن الحركة . ثم هبط علىّ من فوق صوت رقيق يقول : « إنهم لا يصيدوننا نحن معشر القنابر » . وحمدت لهذه القنبرة الصغيرة أنها لم تنكر حبى لبنات جنسها حتى قالت : « ولكنهم يفعلون بنا ماهو شر من الصيد . إنهم يمسكون بنا ويحبسوننا فى مصائد صغيرة من خيوط الحديد الرفيعة حتى نهلك غما وكمدا . إنهم وحوش ضارية ! » ولم أشعر بالألم فى يوم من أيام حياتى كلها كما شعرت بها فى تلك اللحظة . وقال الفهد الثانى : « لقد أوشك يوما ما أن يقتلنى . فماذا ترون أيها الصحاب فى أن ننقض كلنا عليه ؟ » وعلت فى الجو صيحة رهيبة : « انقضوا عليه ! الوحش الضارى ! انقضوا عليه ! » وسمعت صوت مئات من الأجنحة الرقيقة تخفق فى السماء ، ومئات من الأرجل تدب على الأرض ؛ وكنت أعرف أنى لا أستطيع حراكا فأغمضت عينى وأسلمت نفسى لقضاء الله ، وحبستُ أنفاسى ، وظللت جامدا فى مكانى كالعصفور الذى يتصنع الموت ، حتى شعرت بجموع الحيوان والطير تطوف من حولى على الأرض ، ومن فوق فى الهواء ، وأحسست بها تشم رائحتى . وكنت أتوقع فى كل لحظة أن أشعر بأسنانها ومناقيرها تنفذ فى لحمى ،

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ففتحت عيني بعد جهد عنيف ورأيتها كلها من حولي قريبة مني ، وهي مقطبة الوجه لسبب لا أعرفه ، وكل الذي رأيته أنها أدارت كل مناقيرها وأنوفها عني ، وسمعت الثعلب الكبير ينادي فجأة : « ليس أكله مستساغا . إننا لا نستطيع أن نأكله وتلك الرائحة الكريهة تنبعث منه » . وأقبل كل واحد منها يشمني ويمطس ، ويدير أنفه ومنقاره ، ثم أخذت تبتعد عني ، وسمعت من بين أصواتها صوت الضبع يقول : « إن لحمه نتن — ذلك الوحش الضاري ! إن لحمه نتن خبيث » .

وشعرت أول الأمر بشيء من الطمأنينة ، ولكن هذا الشعور لم يلبث أن طغى عليه ما سرى في نفسي من الغيظ لقول هذه الطيور والحيوانات الوقحة إن لحمي أنا الصياد البريطاني لا يصلح طعاما لها . ثم واصل الضبع حديثه قائلا : « وأنتم تعرفون أننا قد نستطيع أكله إذا دفناه في التراب بضعة أيام » .

وصاحت قطاة طاعنة في السن : « عودوا إليه ، ولنعلقه في أغصان شجرة كما يفعل بنا بنو جنسه ، فهم يحبون أكلنا بعد أن يدب الفساد في لحمنا — أولئك الوحوش الضارية — عودوا إليه » !

وأحسست مرة أخرى بخفقان أجنحتها ودبيب أرجلها ، وأيقنت أنني على قيد شعرات من الموت ، فأغمضت عينيّ خشية أن تراهما هذه الوحوش فتبدأ بهما ، ولكن اضطرابي لم يلبث أن زال حين سمعت القطاة تقول : « إذاً فنحن لا نستطيع أن نأكله فورا ، وما لا نستطيع أن نأكله فورا لا نمسه أبدا » .

وصاحت الطيور كلها بصوت واحد : « لن نقتله ، إن هذا لا يفعله إلا الغراب ؛ وشعرت للمرة الثانية أنى نجوت من الموت حتى قال طير من طيور المـاء ذلك القول الرهيب : « اقتلوه واحشوه ، وانصبوه رمزا للوحشية الضارية ، أو علقوا جلده على شجرة وانظروا إليه كما فعل هو بى » .

وظللت دقيقة كاملة أسمع الطيور والوحوش تتبادل الرأى فى هذا الاقتراح الرهيب ، حتى صاح الديك الأسود الذى تحتفظ زوجتى بذيله فى قبعتها : « أتقولون إنه رمز للوحشية ؟ إنه لا يصلح رمزا لها » . وعندئذ تنفست الصعداء على الرغم من غضبى الشديد لهذه الإهانة الصريحة . ثم قالت الدبة بصوت هادىء : « دعونا من هذا كله ، وهيا نبصق عليه ثم نتركه وشأنه . إن هذا الوحش الضارى غير جدير بأكثر من البصق » . وانقضت فترة من الزمان خلتها الأبدية كلها ، كانت فيها هذه الحيوانات والطيور تمر بى وتلقى علىّ قطرة صغيرة من لعابها ، وتنظر إلى عينى نظرة رعب واحتقار ثم تختفى فى السهل . وكان آخر من مر بى منها تلك القطة البرية الصغيرة المقطوعة الرأس . لقد وقفت إلى جانبى لا تستطيع أن تنظر إلى عينى أو تبصق علىّ ، ولكنها استطاعت بطريقة ما أن تقول : « إنى أصفح عنك أيها الوحش الضارى » ثم ابتعدت عنى هى الأخرى ، وعلت فى الجو من جديد تلك الصيحة الرهيبة التى رددت صداها الأرض والماء والهواء : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه » .

وجلست وكان صدى الصوت لا يزال يتردد فى أذنى ، ونظرت إلى السماء فرأيت طيراً أزرق من طيور الماء يمر من فوق ، وحمدت الله إذ أيقنت أنى كنت نائما . وكان منشأ هذا الحلم الذى رأيته فى النهار هو لحم الطير الذى

كان فى شطيرتى ، وضغط المجلة التى وضعتها فوق صدرى مفتوحة عند الصفحة التى كنت أقرأ فيها عن الأسدين آكلى اللحوم البشرية وعن موت هذين الوحشين . وما أشد ما تستطيع الأشياء الصغيرة أن تحدثه من الاضطراب فى عقل الإنسان ، حين لا يكون هذا العقل تحت سيطرته .

وأردت أن أزيل من فمى كل أثر لهذا الطعام الذى أكلت ، ومن نفسى كل ما بقى فيها من هذا الشعور المؤلم ، فقمت من فورى واتخذت طريقى إلى منزلى .

كلبي دندى

بقـــلم

وليم هنرى هدسن William Henry Hudson

توفى فى عام ١٩٢٢

[من كتاب هذا الجيل ولد فى أمريكا الجنوبية وبدأ حياته بائسا فقيرا ، وقد وصف هذه الحيـاة وصفا ممتعا فى كتاب له عنوانه « فى البلد البعيد والزمان القديم » Far Away & Long Ago . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أصيب بمرض عضال جعل حياته من بعد ذلك صراعا بينه وبين المرض والفاقة ، ثم جاء إلى إنجلترا وتجنس بالجنسية الإنجليزية فى عام ١٩٠٠ . وكان منذ حـداثة سنه مرهف الحس دقيق الملاحظة وبخاصة لأنواع الطير ، ويقول عنه جولزورزى Galsworthy إنه كان أدق علمـاء الأحياء ملاحظة وأوسعهم عقلا ، وأعظمهم تفكيرا . وله كتب كثيرة فى حيـاة الطير والحيوان]

٢٤

كبير الجسم ، بشع المنظر ، كث الشعر ، رمادى اللون ، أبيض العنق ، ضخم المخلبين ، من سلالة خليطة غير نقية . كان حين عرفته قد تقدمت به السن ولم يبق له إلا القليل من حاستى السمع والبصر ، لـكنه

كان فيما عدا ذلك قوى الجسم ، خفيف الروح ، مرحا طروبا على الدوام .

وكان دندى أكسل خلق الله طرا ، نعم إنه لم يكن يتكىء برأسه على الحائط حين ينبح ، ولكنه كان يظهر كسله بطرق أخرى غير هذه الطريقة . ولقد كان كثير النباح ، ولكنه لم يكن ينبح إذا رأى شخصا غريبا ، بل كان من عادته أن يحيى كل غريب ، ومنهم جامع الضرائب نفسه ، بأن يهز ذيله ويبتسم له . وكان يقضى معظم وقته فى المطبخ الكبير حيث أعدت له أريكة ينام عليها . وإذا ما أرادت قطتا الدار أن تخلدا إلى الراحة ساعة من الزمان وجدتا منها على جنبه ما لا تجدانه على الوسادة أو البساط ، وكأنه هو أيضا كان يجد فيهما غطاء دفيئا له ، فيفيد منهما ما تفيدانه منه . وكان دندى بعد أن يقضى فى النوم ساعة يتروض قليلا فى الطريق العام المجاور للدار ، فيصطدم فيه أحيانا بالمارة ، ويهز ذيله لكل من يراه ، ثم يعود إلى الدار . وكان يخرج ست مرات أو ثمانياً أو أكثر فى كل يوم ، ولكنه كان يلاقى فى الدخول والخروج مشقة كبيرة لما طبع عليه من الكسل ، فقد كان يجد الأبواب مغلقة دونه . وفى هذه الأحوال كان يجلس فى فناء الدار وينبح طويلا حتى يأتى من يفتح له الباب ، فيخرج منه إلى حديقتها على مهل ، فإذا وجد الباب الخارجى مغلقا عاد إلى النباح حتى يفتح له هذا الباب أيضا ، لكنه إذا نبح عشرين مرة أو ثلاثين ولم يسعفه أحد بفتحه فتحه هو بنفسه ، ولم يكن فتحه ليصعب عليه ، ثم خرج منه ؛ وبعد عشرين دقيقة أو نحوها يعود إلى الباب الخارجى وينبح طالبا الدخول ، فإذا لم يجد من يعنى بأمره فتحه بنفسه ودخل .

وكان دندى إذا جلسنا إلى المائدة يجد على الدوام ما يأكله ، ولكنه

كان يحب أن يعطى شيئا من الطعام بين الوجبات مرة أو مرتين فى اليوم .

وكان بسكوت الـكلاب يوضع له فى صندوق مفتوح على رف منخفض ويأخذ منه واحدة كلما اشتهى ، ولـكن ذلك كان يكلفه من المشقة ما لا يطيق ، ولذلك كان يجلس بجوار الرف ينبح نباحا يمتاز بشدته وعمقه ، فإذا وجد إنساناً مصادفة فى المطبخ أو بجواره ، سارع إليه بعد خمس ثوان من نباحه ليعطيه حاجته من البسكوت حتى يسكته ويهدىء من ثائرته ، فإذا لم يأته أحد قام إليه بنفسه وأخذه وأ كله .

وحدث فى آخر سنة من سنى الحرب الـكبرى الماضـية أن عز طعام الإنسان والحيوان ، أو قل إنه امتنع فعلا فى بلدة دندى . وآلم دندى ألا يجد بسكوته ، فكان كثيرا ما يذكرنا به بنباحه العالى ، وكان يذهب أحيانا إلى الصندوق الفارغ ويشمه ويضربه بيده حتى لا تشك أنه ينبح طلبا للبسكوت . ولعله كان يظن أن منشأ تلك الحالة الجديدة أن أصحاب البيت كانوا ينسونه عندما يذهبون إلى السوق فى كل صباح ، ويعودون منها وليس معهم طعامه المعتاد . وذهبت إلى المطبخ فى يوم من أيام الشتاء الأخير من سنى القحط فوجدت أرضه قد تناثرت عليها قطع صـندوق البسكوت . وكان دندى نفسه هو الذى فعل هذه الفعلة بالصندوق ، فقد جره بيده من مكانه إلى وسط المطبخ ، وأخذ يعضه ويمزقه بأسنانه ، ويلقى بقطعه على الأرض . وفاجأه بعض أهل الدارحين أوشك على الفراغ من عمله ، وكان من رأيه أن الذى دفعه إلى تمزيق الصندوق على هذا النحو هو أنه أحس فى كل قطعة من القطع الممزقة طعم البسكوت . أما الذى أراه أنا فهو أنه لما كان الصندوق قد وضع فى هذا المـكان ليكون فيه البسكوت ، ثم أصبح لا يحتوى على

شيء منه ، فقد كان دندى يعده عديم النفع — وأنه قد فقد وظيفته إذا صح ذلك التعبير — وأن فى وجوده فى ذلك الموضع إهانة له وسخرية من ذكائه ، وإغراءً مستمراً له على الذهاب إلى ذلك المكان بضع مرات فى اليوم ليجد الصندوق فارغا فى كل مرة . ولعله قال فى نفسه إن من الخير إذاً أن يزول هذا الصندوق من أمامه ، ولا شك فى أنه كان مغضبا بعض الغضب وهو يفعل به ما فعل .

ولم يذق دندى الخمر قط من يوم أن عرفته ، أما فى أيامه الأولى فقد كان مولعا بشربها ، وقد قيل إنه كان فى تلك الأيام الخالية إذا أظهر له أحد زجاجة الشراب هز ذيله علامة على السرور ، وإنه كان يعطى مقدارا قليلا من البيرة فى أثناء الطعام ، ثم حدثت له حادثة رأيت بعد شيء من التردد أن أقصها على القارىء ، فقد تكون أهم ما حدث له فى حياته كلها ، وهى حياة قليلة الأحداث .

كان دندى ككل الكلاب شديد التعلق بأحد أفراد الأسرة لأنه كان يأخذه معه حين يذهب للتنزه فى خارج الدار ، وقد ذهب معه فى يوم من الأيام إلى حانة قريبة ليفاوض صاحبها فى أمر ذى بال ؛ وذهب الرجلان ومعهما دندى إلى مستودع الشراب ، ورأى الكلب أن الحديث قد يطول فأقعى واستعد للنوم . واتفق أن كان فى الحجرة دِنٌّ من الخمر ذو صنبور غير محكم الإقفال ، وقد وضع صاحب الحانة تحته إناء يتلقى ما يتساقط منه ، واستيقظ دندى من نومه وسمع تساقط قطرات الخمر فاتجه نحو الإناء وشرب منه ما أراد ، ثم رجع إلى مكانه .

واستغرق فى النوم ، وعاد فاستيقظ منه ، وشرب جرعة أخرى من الخمر

وكرر ذلك خمس مرات أو ستًّا . وكان الرجلان قد فرغا من حديثهما ، وخرج دندى مع سيده ولكنهما ما كادا يسيران فى الطريق حتى بدت على الكلب علائم السكر ، فأخذ يترنح يمنة ويسرة ويصطدم بالمارة ، ثم سقط فى مجرى سريع من الماء القذر كان يؤدى إلى بالوعة فى الطريق . وخرج الكلب من الماء وعاود السير من جديد وهو يحاول أن يكون دائما قريبا من الجدران حتى لا يصيبه ما أصابه فى المرة السابقة . وأخذ الناس ينظرون إليه ويعجبون من أمره ويسألون عما أصابه ويقولون: « هل أصابته نوبة أو ماذا دهاه ؟ » وأجابهم صديق دندى أنه لا يعرف شيئا على التحقيق ، وكل ما يعرفه أنه طرأ عليه أمر غير عادى ، وأنه سيأخذه إلى المنزل بأسرع ما يستطيع .

ولما وصلوا إلى المنزل ارتمى دندى على أريكته ، وألقى برأسه على وسادته ، ونام نوما عميقا ، وظل نائما حتى صباح اليوم التالى لم يستيقظ ساعة واحدة ، فلما صحا من نومه كانت آثار الخمر كلها قد زالت عنه ، ولاح أنه قد نسى كل شىء مما أصابه فى اليوم السابق . ولكنه حين رأى أحد أفراد الأسرة يمسك بيده قدحاً من البيرة ، ويناديه يا دندى ، لم يهز له ذيله كما كان يفعل ، بل وضع القدح بين ساقيه وولى وجهه عنه فى اشمئزاز ظاهر . ومن ذلك اليوم لم يذق دندى للخمر طعما ، ولم يكن ثمة شك فى أنه كان يفهم أن أهل البيت يسخرون منه حين كانوا يحاولون أن يغروه بالشراب بأن يضعوا البيرة أمامه ويدعوه بابتساماتهم إلى شربها ، فكان فى هذه الحال يدبر عنهم ويعوى عواء الغضب ، ولم يكن شىء غير هذا يغضبه من أصدقائه ورفاق حياته .

ولم أكن لأسيء إلى دندى بإفشاء هذا السر لو كان دندى الآن على قيد الحياة ، لكنه مات بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمره ، وهو عمر مديد من أعمار الكلاب . وكأنه أراد أن يعيش حتى يشهد نهاية الحرب الكبرى الماضية ، فما كادت الهدنة تعلن حتى اعتلت صحته وأخذت تضمحل اضمحلالا سريعا مطردا ، وفقد سمعه وبصره ولكنه ظل متشبثا بعادته القديمة ، عادة التروض خارج الدار عدة مرات فى كل يوم ، والنباح عند الباب الخارجى ، وفتحه بنفسه إذا لم يأت من يفتحه له . وظل يفعل هذا حتى كان يوم من أيام سنة ١٩١٩ جاء فيه إلى منزلنا فى زيارة قصيرة صبيةٌ يعرفهم دندى . فى هذا اليوم ألقى بنفسه على فراشه ولم يبرحه بعده أبداً ، لا بالليل ولا بالنهار ، ورفض كل ما كان يقدم له من الطعام ، ولم نشك فى أن أجله قد اقترب . وقد جرت العادة فى هذه البلاد أن يُخَدَّر الكلب المشرف على الموت بإعطائه جرعة من الاستركنين تريحه من آلامه ، ولكن ذلك لم يكن واجبا فى هذه الحال ، لأن الكلب لم تنتبه آلام قط ، فلم يتأوه فى أثناء يقظته أو نومه ، وكنتَ إذا وضعت يدك عليه هز ذيله كأنه يريد أن يقول لك إنه بخير ، ثم قضى نحبه أخيرا وهو نائم فمات ميتة سهلة هادئة ، ودفن فى حديقة المنزل الكبيرة قرب شجرة التفاح الثانية .

جامعة الشَّمر

بقلم

و . ه . هدسن

٢٥

وقفتُ يوما قبيل الغروب على كثيب من الرمال قريب من شاطئ البحر ، أنظر إلى عجوز تسير مسرعة على الشاطئ الرملى ، بعد أن انحسر عنه ماء البحر وتركه رطبا نَدِيا . وكانت الريح تهب من ناحية البحر باردة قوية ، وعجبت من أمر هـذه المرأة الضعيفة الهزيلة كيف تستطيع السير مسرعة على الرمال الرطبة لاتـكاد قدماها تستقران على الأرض . ورأيتها تقف بين الفينة والفينة ، ثم تنحنى لتأخذ شيئا من الأرض بإحدى يديها . ولم أكن أستطيع أن أتبين ماتأخذه بوضوح لأن الشمس كانت قد مالت إلى المغيب ، وبدأ الظلام يخيم على البر والبحر ؛ وكان الفصل شتاءً والجو باردا فبدا كل شىء فى المكان قاتمـا قليل الوضوح .

ونزلت من فوق الـكثيب ، وسرت إليها فوجدتها عجوزا شمطاء الشعر ، عارية الرأس ، شاحبة الوجه ، بارزة الوجنتين ، متناسبة المعارف ، عسلية العينين . ورأتنى فوقفت ونظرت إلىّ فى سـكون . وسرى فى جسمى عندما نظرت إلى عينيها تيار من الحزن لم أعرف له سببا ، فقد كانتا تفصحان عن أسى يدركه الإنسان لأول نظرة . وقد لا يكون حزنها هو منشأ هـذا الإحساس بل منشأه الأثر الذى تركه الحزن فى عينيها بعد أن تولت عنها

كل مسرات الحياة ومباهجها ، وأقفر قلبها من كل حب ، وخلا حتى من الذكريات العزيزة والآمال الحلوة . تلك هى الأفكار التى طافت بخاطرى وقتئذ ، وقد لاتكون حقائق بل أوهاما وخيالات . ولكن الذى لاشك فيه أنه لو كانت هذه المرأة قد جاءت إلى هذه الأرض من عالم غير عالمنا لما بدت أكثر مما هى غرابة ، ولما أثارت فى نفسى ما أثارته فيها من إحساس عجيب .

وسألتها ماذا تفعل فى مثل هذا الوقت من النهار ؟ فأجابت فى صوت هادئ رزين بأنها تجمع الشمر البحرى الذى ينمو على الأرض المستوية الملحة ، ويُنْبِت ورقا أخضر قاتم اللون شبيها بورق الكرّاث . وقالت إن هذا الفصل أنسب الأوقات لجمعه وتحليله وحفظه ، للانتفاع به طول العام . وكان بيدها سلة تضعه فيها وسكين تقتلع بها النبات من جذوره ، وكيس قديم تضع فيه ما تجده من العصى وقطع الخشب التى يقذفها ماء البحر على الشاطئ . وكان مما قالته أيضا إنها قد جمعت الشمر من هذا المكان نفسه فى مثل هذا الشهر عينه سنين كثيرة .

وأطلت الحديث معها عمدا ، وأخذت أسألها وأتصنع الاهتمام بسماع أجوبتها الآلية ، وأحاول فى الوقت نفسه أن أسبر غور عينيها الحزينتين اللتين لم تنقطعا لحظة واحدة عن النظر إلىّ .

وبينا نحن فى حديثنا إذ طرقت آذاننا جلبة من الأصوات البشرية ، والتفتنا فرأينا جماعة أو بالأحرى موكبا من لاعبى الكرة بعد أن فرغوا من اللعب وتناول الشاى . وكان عددهم يربى على الأربعين ، منهم الرجال ومنهم النساء ، يسيرون مثنى وثلاث ورباع ، وكانوا عائدين بعد اللعب

إلى فندق مقام لهم فى مكان بعيد على شاطئ البحر ؛ وكانت وجوههم باشة ناضرة ، وملابسهم نظيفة أنيقة ، وثغورهم باسمة ، وهم يتحدثون ويمرحون ويضحكون ؛ وكان بعضهم يقيم فى الفندق على الدوام ، وبعضهم الآخر ينتظرهم على بابه نحو عشرين سيارة لتقلهم إلى بيوتهم أو إلى بيوت يقيمون فيها غير بيوتهم .

وقطعنا الحديث حين أخـذوا يمرون بنا على بعد خطوات قليلة من المكان الذى كنا نقف فيه ؛ وأثار منظرهم فى نفسى قصة الأرض التى كانوا يلعبون عليها الـكرة من وقت الظهيرة حتى مغيب الشمس . هذه الأرض ملك لأسرة قديمة ، قد بقيت فى يدها من أيام الفتح النرمندى إلى الآن ؛ لـكن رب هذه الأسرة أضحى الآن فقيرا لا يملك كغيره من النبلاء بيتا فى لندن ، ولا منجما للفحم فى ويلز ، ولا يأتيه إيراد من مصدر آخر غير هذه الأرض التى يؤجرها إلى الزراع فتأتيه بريع لا بأس به . ولقد كان هذا الريع كفيلا بنفقاته لولم يكن له أولاد يعيشون فى لندن معيشة لهو وبذخ ، يراهنون على الخيل ، ويقتنون السيارات ، ويترددون على أحسن النوادى . وكان الوالد المسكين يؤدى لهم فى كل عام مايستدينونه من المال لينفقوه فى ملاذهم ولهوهم . وكانت حال الرجل تبعث الأسى فى قلوب أصدقائه وجيرته ، لأنهم كانوا يعدونه مثلا طيبا لأقدم الأسر وأشرفها فى هـذه البلاد . ووجد الرجل نفسه مرغما على التوفيق بين واجباته لنفسه وواجباته لأولاده ، وكان مما عمله لهذه الغاية أن أنشأ حلقات للعب الـكرة على الأرض الرملية المحصورة بين البحر والبلدة القديمة ، وشيد فيها نزلا كبيرا ليجتذب اللاعبين من أنحاء البلاد المختلفة . وحالت هذه

الملاعب بين القرويين وبين البحر ، واعترضت طريقهم إلى الكثبان الرملية العارية التي كانت متنزههم من أقدم الأزمان .

وأمروا أن يصلوا إلى البحر وإلى شاطئه ، إذا شاءوا أن يصلوا إليهما ، عن طريق آخر طويل يبدأ بعيدا عن البلدة بأكثر من نصف ميل؛ وخضعوا لهذا الأمر وأطاعوه ، ولم يبدوا عليه اعتراضا ، بل قيل لهم فوق هذا إن عليهم أن يشكروا لصاحب الأرض فضله عليهم ، لأنهم في نظير هذه المشقة القليلة ينالون خيرا كثيرا من وجود اللاعبين في بلدهم ، فهم يستخدمون أبناءهم الصغار في كثير من مختلف الشئون . لكنني تبينت رغم هذا كله أنهم لم يكونوا راضين أو شاكرين ، بل كانوا يعتقدون أنهم ظلموا ، وكان هذا الشعور يؤلمهم ويبعث الحسرة في قلوبهم .

ذكرت هذا كله بينما كان اللاعبون يمرون بنا في طريقهم إلى النزل ، وسألت نفسي : هل تحقد هذه العجوز هي الأخرى على أولئك الذين حالوا بينها وبين الكثبان الرملية التي كانت هي وأبناء القرية جميعا يسيرون عليها وقت الأصيل ، أو يجلسون أو يرقدون عليها بين الأعشاب ، ومنعوهم من الوصول إلى البحر حيث كانوا يذهبون في كل يوم ليجمعوا ما يقذف به من الأعواد وقطع الخشب ، فيستعينوا بها على حياتهم الشاقة الأليمة !

قلت هذا في نفسي وقلت أيضا إنه إذا كان الأمر كذلك فإني سأتبين أثر هذا الشعور في عيني تلك المرأة عندما ترى أولئك اللاعبين المرحين في طريقهم إلى النزل ، وإلى سياراتهم ومنازلهم المترفة .

وراقبت وجهها مراقبة دقيقة ، ولكني لم أره يتغير ، ولم أتبين أقل دليل على الحقد أو على غيره من المشاعر . وكل ما هنالك أن الكآبة التي

رأيتها من قبل مرتسمة على وجهها ظلت على حالها ، وكانت عيناها أشبه بعينى الطير أو الحيوان الأسير ، تتجهان نحونا وكأنهما لا تنظران إلينا ، بل تنفذان فينا إلى ما وراءنا . وظل وجهها كما هو لا يتغير بعد أن مر اللاعبون جميعا . وانتهينا من حديثنا ووضعت فى يدها بعض النقود فشكرت دون أن تبتسم ، بصوتها الهادئ الذى أجابت به عن جميع أسئلتى فى أثناء الحديث . وصعدتُ مرة أخرى فوق الكثيب ، ونظرت إليها فبدت لى كما بدت أول مرة ، إلا أن معارفها كانت أقل وضوحا . رأيتها تمشى مسرعة كالفراشة أو كالشبح ، فوق الرمال المنبسطة تجمع الشمر البحرى فى الريح الباردة السافية ، وخيل إلىّ أنى كنت أتحدث إلى مخلوق أشبه بأشباح الموتى أو بالأرواح ، ولا أستطيع وصفه ، شأنه شأن بعض الآثار الجوية فى الأرض والماء والسماء ، يُحسها من يصور منظرا طبيعيا ولكنه لا يستطيع إظهارها فى صورته ، فهو لذلك يتجاهلها ، ويجعل أصابعه فى أذنيه لكيلا يستمع إلى ذلك الصوت الذى يسخر منه ومن تقليده السخيف ؛ وشأن الكاتب فى هذه الحال شأن المصور ، كل ما يستطيع أن ينقله إلى قرائه فى مثل هذه الحادثة التى وصفناها هو أن يحاول تصوير الأحاسيس التى يثيرها المنظر فى نفسه .

ومن الناس من مرنت أعينهم ، على غير علم منهم ، على أن يتأملوا كل وجه يرونه ، وأن يتبينوا فى أكثر هذه الوجوه شيئا مهما يكن قليلا مما تكنه صدور أصحابها . أولئك الناس لا يستطيعون أن يسيروا فى طريقهم دون أن يعترضهم من حين إلى حين وجه يشعرهم بما أصاب صاحبه من مآس ، أو عما ينطوى عليه قلبه من سر دفين ، ويسترعى نظرهم وجه ثان

وثالث ، ولكن ما يثيره كل وجه من المشاعر يزول منها على الفور . على أنه يحدث من حين إلى حين بعد فترات من الزمن قد تطول إلى خمس سنين أن يرى الواحد منهم وجها لا ينفك منظره يعاوده ، ولا يزول أثره الواضح من نفسه طوال الخمس السنين ، وكان وجها كهذا الوجه وعينين كهاتين العينين ما رأيت حين شاهدت جامعة الشمر البحرى فى مساء ذلك اليوم ، ولكن ما تنطوى عليه من سر لا يزال خفيا لم أتبينه حتى هذه الساعة .

الصمت

بقـلم

ربرت لند Robert Lynd

١٨٧٩ — . . . . .

[المحرر الأدبى لجريدة The News Chronicle ، ولد فى بلفست بأيرلندة ، وكان أبوه من رجال الدين ، وتعلم فى جامعتها ، وتخرج فيها عام ١٨٩٠ . وبعد تخرجه اشتغل بالتحرير فى الصحف ، ونشر عدة كتب عن إنجلترا وأيرلندة وفرنسا ، ولكن شهرته تعتمد على مقالاته الأدبية . وهو كاتب كثير الإنتاج ، نشر حتى الآن مجموعات كثيرة من المقالات والقصص ، منها واحدة باسم « لو فتح الألمان إنجلترا ومقالات أخرى » نشرها فى عام ١٩١٧ ، وزوجته هى الأخرى شاعرة وكاتبة مسرحيات وروايات .]

٢٦

الصمت مخالف للطبيعة البشرية ؛ وآية ذلك أن الإنسان يبدأ حياته بصرخة ويختتمها بسكتة ، وفيما بين بدايتها وختامها تراه يبذل كل مايستطيع لملء العالم بالأصوات ؛ وقل أن يوجد شيء فى هذا الكون يرهبه الإنسان أكثر مما يرهب الصمت ، وليس حديثه لنفسه فى معظم الأحوال إلا جهدا عنيفا يبذله لمنع الصمت الرهيب . وإذا ما اجتمع بزميل له من بنى جنسه ، وتخلل حديثه معه فترات من الصمت ، عد نفسه شخصا حقير الشأن عاجزا

عن الحديث ، وحسد أكثر الناس ثرثرة وأفرغهم رؤوسا . وهو يعرف أن تسعة أعشار ما يتحدث به الناس ليس فيه من المعانى أكثر مما فى طنين الذباب ، ولكنه يحرص على أن يشترك فى هذا الطنين ، وأن يثبت لمن حوله أنه إنسان لا دمية . وليس الغرض من الحديث فى أغلب الأحيان هو تبادل الأفكار ، بل مواصلة الطنين . ولست أنكر أن الطنين مختلف الأنواع وأن منه ما هو أشد مضايقة للإنسان من أزيز الناموس المستمر ، لكن خيرا للإنسان إذا وجد فى حفلة أن يكون ناموسة ولا يكون إنسانا أبكم . ومن حسن الحظ أن كثيرا من الطنين لطيف لا تمجه الأذن ، وأن منه ما يستطيعه العقل نفسه ، ولهذا كان أحمق الناس من لا يشترك فى الطنين مع جيرانه إلا إذا خطرت له فكرة رائعة أو سديدة . ويخيل إلى أن الذين يظنون أن حالة الجو من الموضوعات التافهة التى لا يصح أن يبدأ بها الحديث ، قوم يجهلون السبب الذى من أجله رغب بنو الإنسان فى الكلام . إن الذين يتحدثون لأنهم يريدون أن يعرفوا أو يقولوا شيئا جديدا قلة لا يعتد بها . أما الباقون فمنهم من لا يطالبون أكثر من أن يسمح لهم بالطنين فى آذان غيرهم وإن لم يكن لديهم ما يطنون به أكثر من قولهم إنهم شاهدوا مسرحيتين أو ثلاثا أو إنهم تعشوا فى مطعم ، وتراهم فى آخر السهرة التى تحدثوا فيها طويلا عن لا شىء يفخرون بأنهم كانوا أبرع الناس حديثا . ولقد رأيت شابا يستأثر دون غيره بالحديث فى حضرة أمير نصف ساعة كاملة ليلقى علينا خطابا طويلا عن نفسه ، ولكنه خطاب خال من كل معنى ، ولم يكن فينا من كان راغبا فى سماعه إلا هو نفسه ، ومع ذلك فقد كان فى أثنائه منشرحا فخورا كأنه ملك متوج .

وكثيرون من الناس لا يستمتعون بالحديث فى مجتمع إلا إذا كانوا أكثر من فيه لغطا ، وذلك فى نظرى عيب كبير ، ولكن منشأه كراهتنا الطبيعية للصمت ، فقد كان هذا الشاب الذى ذكرته توا يكره الصمت إلى حد لم يجرؤ معه على أن يمسك لسانه لئلا يصبح الصمت عاما ، وإذا لم يكن قد أفلح فى أن يكون محدثا بارعا فما ذلك إلا لأنه لم يدرك أن الحديث لا يكفى فيه أن يكون طنينا فحسب ، بل لا بد أن يكون طنينا تشترك فيه عواطف المتحدثين جميعا . ومن أجل هذا كانت حالة الجو من الموضوعات الصالحة للحديث ، فهو يجمع الناس من فورهم حول تجارب يشتركون فيها جميعا ويمكنهم من أن يطنوا طنينا متحد النغمة . ومتى بدأ هذا الانسجام بينهم أمكنهم أن يتقدموا مراحل أخرى نحو موضوعات جديدة تلائم عواطفهم ، ثم تتتابع النغمات حتى يصبح حديثهم كله نغمات منسجمة تطرب لها الأذن ويرضاها العقل . وسرّ الحديث الطيب أن يكشف المتحدثون نغمات يميلون إليها جميعا . وإلى هذا السر نفسه يرجع السبب فى أن الحديث بين ثلاثة كثيرا ما يفشل ؛ ذلك أن اثنين منهم يجدان موضوعا مشتركا فيندفعان فى التحدث فيه وينسيان أن معهما رفيقا قد لا يجد فيما يتحدثان فيه لذة . فقد يكون منهم اثنان تخرجا فى كلية واحدة من جامعة واحدة ، فيأخذان فى سرد ما مر بهما من تجارب ، فيقول أحدهما : « هل تذكر فلانا ؟ وهل تذكر اليوم الذى . . . . ؟ وهل تذكر الليلة التى سرقت فيها قبعة الشرطى وهو نائم ؟ ولقد كان أظرف شىء ما فعله فى ذلك اليوم الذى ألقى فيه صحفة طعامه من النافذة وكاد يشج رأس الشيخ الهرم . . (معلم اللغة اللاتينية) والذكريات القديمة خير موضوع يتحدث فيه اثنان ، فهى تثير حماسة

المتحدثين ، لأنها تتصل بتجاربهما اتصالا وثيقاً ؛ لـكن عيبها أن الشخص الثالث يشعر فى كثير من الأحيـان أنه غريب عن الحديث ، لأن الأسماء والحوادث ، وهى الرموز الجبرية لعواطف المتحدثين ، لا تحمل معنى إلى ذهنه ولا ترتبط فيه بشىء ، فهو لا يعرف شيئاً عن أسماء الأشخاص الذين يدور حولهم الحديث . وقد يضحك ضحكا آليا كما يضحك غيره ممن تطربهم الذكريات ولـكنه ضحك أجوف متصنع . ومن أجل هذا كان كل حديث من هذا النوع حديثاً غير مستحب ، لأنه يفرض على الشخص الثالث ذلك السكون الاضطرارى الذى يعذبه تعذيباً شديداً . وقد يكون الحديث بين ثلاثة حديثاً طيباً إذا فرض الثالث على نفسه الصمت باختياره ، أما إذا كان الصمت مفروضاً عليه من غيره فإن الحديث يصبح بغيضاً ثقيلا .

ونحن نحب الضجيج أكثر ممـا نعرف حتى ولو لم يكن معنا رفيق من بنى الإنسان ؛ والذى يظن حين ينتقل من المدينة إلى الريف أنه يفعل ذلك ليستبدل السكون بالضجيج يخادع فى الواقع نفسه ؛ فنحن لا نذهب إلى الريف لنفر من الصخب والأصوات ، بل نذهب إليه لنبحث فيه عن صخب من نوع غير الذى ألفناه . اجلس فى حديقة الدار فى الريف فى يوم من شهر مايو تدرك أن الأصوات لاتنقطع فيها أبدا ، فالطيور فيها لا تقل ثرثرة عن النساء ، والنحل لا يقل عداء للصمت عن الأطفال ، والريح تحمل إلى أذنيك زقاء الديكة ، ونقنقة الدجاج ، وسقسقة العصافير ، ونباح الـكلاب ، وثغاء الغنم ، وكركرة العجلات . ويمر عليك اليـوم كله والأصوات تتوالى بعضها فى إثر بعض . وإذا جن الليل وسكتت أصوات الحيوان والطير شعرت برهبة ووحشة . وأهم أسباب الخوف من الظلام هو

الخوف من الصمت ، ذلك أن من أصعب الأشياء على الإنسان أن يعتقد أن السكون قد خلا من ساكنيه جميعا . وإذا لم يمتلىء العالم بأصوات الناس والحيوان بدأ الإنسان يظن — أو على الأقل بدأ الكثيرون من الناس يظنون — أن ثمة شيئا صامتا خفيا رهيبا ؛ فالأصوات نوع من الرفقة والألفة حتى لأذكر أننى وأنا طفل كنت آنس لدقات الساعة فى حجرة نومى . وكان يحلو لى أن أفتح نافذة هذه الحجرة وأستمع إلى صوت عصفور يسقسق وهو مقبل من ناحية المرعى فى الظلام الدامس . ولست أنكر أن من الأصوات مايقذف الرعب فى القلوب فى أثناء الليل ، ولكن منشأ ما فيها من الرعب هو ما يكتنفها وما تنفذ فيه من الصمت الرهيب . وأنت تفزع أحيانا إذا كنت عائدا إلى منزلك ليلا وطرق أذنيك صوت بقرة تتنفس وراء سور حظيرة ، ولكن الذى يفزعك فى هذه الحال هو سكون الليل لا صوت أنفاس البقرة . ولو أن الطبيعة وجدت وسيلة عكنها من أن تحتفظ بجميع أصواتها وجلبتها فى أثناء الليل ، لفقد الظلام أكثر من نصف ما فيه من رعب .

ذلك أن السكون التام يلقى فى قلوبنا الرعب حتى فى وضح النهار ؛ فلو أنك تصورت نفسك آخر من بقى على ظهر الأرض من الكائنات الحية غير النبات ، وأيقنت أنك مخلد وآمن من الخطر أبد الدهر ، لشعرت مع ذلك بالرعب الشديد من العالم الذى انعدمت منه الأصوات إلا وقع أقدامك وصوتك أنت نفسك إذا أوتيت من الشجاعة ما يكفى لإخراج الصوت . أما إذا كان معك على ظهر الأرض طيور وكلاب وقطط وضفادع وبقر وغنم فقد يكون فى وسعك أن تصبر على وحدتك وتطمئن إليها

اطمئنان الفلاسفة . ولست أكذب القارئ أننى أنا نفسى لا أحب أن أحيا هذه الحياة ، ولكن ما أعانيه منها أقل مما أعانيه لو كنت آخر مخلوق على ظهر أرض صامتة ساكنة ليس فيها بحر مضطرب تتلاطم أمواجه بصخور الشاطئ . إن الناس يتحدثون عن سكون القبر ، وما من شك فى أن العالم إذا خلا من الأصوات كان هو والقبر سواء . ومن يعش على ظهر الأرض التى انعدمت فيها الحياة يكن كمن دفن فى القبر حيا . ولست أشك فى أن الكثرة الغالبة منا لاتتردد فى الانتحار لتتخلص من هذا النوع من الحياة .

على أن هذا لا يعنى أننا لا نستمتع برهبة الصمت بحال من الأحوال . إن الذين يتسلقون الجبال العالية المكللة بالثلوج الدائمة ، والذين يكشفون آثار المدن القديمة التى خلت من أهلها ، ليثيرون مشاعرنا بما يصفون من سكون هذه الربوع الخالية والآثار الدارسة ، كأن هذا السكون الصامت يعدل بالنسبة إليهم الدخول فى عالم جديد . وما من شك فى أن هذا النوع من السكون يبعث فى النفس أحاسيس لم نألفها من قبل . لقد وقف الشاعر الكبير ورد سورث على جسر وستمنستر فى ظلمة الفجر وسكونه ، ونظر من موقفه هذا إلى مدينة لندن فامتلأ قلبه روعة ، وجاشت فى صدره مشاعر لم يحس بمثلها قط ، وهو ينظر إلى المدينة فى وضح النهار[1] . وسبب ذلك أننا فى سكون الليل وصمته نحس بأننا نوشك أن ندرك سرا خفيا ، فاتنا أن ندركه فى صخب الحياة العادية . وهذا فى رأيى منشأ استيائنا من

---

(١) هذا المنظر هو الذى أوحى إلى وردسورث بأغنيته المشهورة « ليس على الأرض أجمل من هذا المنظر ... الخ » (المعرب)

الذين يحدثون الضجيج فى دور العبادة ؛ ذلك أن مالهذه الدور من أثر عظيم فى النفوس إنما ينشأ من سكونها الرهيب ؛ وليست الأوهام والخرافات هى التى تتطلب إلينا أن نلزم فيها الصمت أو السكون أو خفض الصوت إلى حد الهمس إذا كان لابد لنا من الحديث ، بل إننا ليس فى مقدورنا أن نرى الكنيسة أو المسجد بحيث يرتسم جماله فى الخيال وينطبع فى الذاكرة إلا إذا خشعت فيه الأصوات وخلا حتى من الهمس .

ولقد أدركت بعض الطوائف الدينية قيمة الصمت ؛ فالمتصوفة يقولون إننا ندرك أسرار الحياة بالصمت لا بالكلام ، وما من شك فى أن كثرة الجلبة لا تزيد من حكمة بنى الإنسان . وقد يسخر البعض من العادة التى جرت عليها بعض الأمم فى الأيام الأخيرة ، عادة الصمت دقيقتين يوم عيد الهدنة ، ويظنون أن ليس فى هذا الصمت نفع ، ولكننى أؤكد للقارئ أننى كنت فى شارع من شوارع لندن حين وقفت حركة المرور ، وساد السكون ، ووقف كل إنسان جامداً فى مكانه لا ينطق ولا يتحرك ، فشعرت كما شعر غيرى من ملايين الخلق برهبة الموقف وجلاله ، ولاح لى أن لندن مدينة السيارات والمركبات ، ومدينة المصانع والمتاجر ، قد لفها سر خفى عجيب أقوى أثراً فى الخيال من ضجيج الأبواق ووقع الأقدام . نعم إننى رأيت رجلا طاعناً فى السن يتحرك فى وسط هذا السكون العميق الشامل . ولست أدرى هل أدرك هذا الرجل أو لم يدرك أن الناس من رجال ونساء قد استحالوا كلهم فجأة تماثيل من حجر ، وأن حركة المدينة كلها قد سكنت أو انعدمت ، وأن الأصوات قد خشعت فلم يكن أهلها يسمعون إلا صوت حذائه وهو يتضاءل ويتضاءل كلما بعد عن المكان

الذى كنا نقف فيه . ولقد خيل إلىّ أن هذا الصوت لم يقطع الصمت ويضعفه بل زاده قوة على قوته ؛ ولم أر واحداً من الناس يدير وجهه نحوه لينظر إليه . ولعله لم يسمع قط بيوم الهدنة أو لعله كان أسعد الناس حظا فلم يسمع شيئاً عن الحرب ذاتها . وسواء كان هذا أو لم يكن فقد كان الرجل نموذجاً صادقاً لمن لا يطيقون السكون من بنى الإنسان . نعم إن البقية الباقية منا يستطيعون أن يبقوا صامتين دقيقتين من الزمان ، ولكن إذا ما أطلق المدفع إيذاناً بانقضائهما عدنا مسرعين إلى ما كنا فيه من هرج ومرج ، وما ألفناه فى الحياة من صخب وضجيج .

حفـــلة فى قرية

بقـلم

ألن ألـكسندر ملن Allan Alexander Milne

١٨٨٢

[من كتاب هذا الجيل ، ولد فى شهر يناير من عام ١٨٨٢ ، وتخرج فى جامعة كمبردج واشتغل بالصحافة منذ عام ١٩٠٣ ، وظل يكتب فى جريدة Punch تسع سنين ، وأصبح منذ عام ١٩٠٨ من كبار كتاب الصحف . وقد كتب عدة قصائد وروايات ومسرحيات ومقالات . ومن أحسن رواياته « حينما كنا صغاراً جـدا » When We Were Very Young سنة ١٩٢٤ ، « السلم الشريف » Peace With Honour سنة ١٩٣٤ ، « وراء خط القتال » Behind the Lines سنة ١٩٤٠] .

٢٧

قريتنا من أصغر القرى فى هذه البلاد ، ولـكن عدد من أرسلت من أبنائها إلى ميدان القتال فى الحرب الماضية بلغ قبل نهايتها خمسة عشر شابا . وكان من حسن حظها — كما قال قسيسها — أن أحداً من أبنائها لم يقتل فى هذا الصراع ، بل أن أحداً منهم لم يصب بأذى قط إذا اسـتثنينا شارلى رد الذى جرح على أثر سقوطه عن ظهر جواد . ومن أجل هذا كان سرورنا بانتهاء الحرب لا يعدله سرور قرية أخرى فى البلاد كلها .

ولما اجتمعنا لنحتفل بالنصر اتجهت أفكارنا بطبيعة الحال نحو أبطالنا الذين عادوا من ميادين القتال ، واقترحت الآنسة تريفر العازفة على البيان فى أيام الآحاد أن نخلد ذكرى هؤلاء الأبطال بإنشاء فوارة من رخام يستقى منها المارة وتنقش عليها بعض العبارات المناسبة للمقام كالعبارة الآتية : « أنشئت هذه الفوارة اعترافاً ببطولة أبناء القرية الشجعان الذين وثبوا إلى ميدان القتال تلبية لنداء الوطن » ، ثم تكتب بعدها أسماء هؤلاء الشبان . لكن إبيورى إسكاف القرية اعترض على الصيغة المقترحة قائلا : إن كلمة « وثب » لا تصلح للتعبير عن عمل الشخص الذى لم يرتد ثياب الجندية إلا فى عام ١٩١٨ بعد أن قبض عليه رجال الشرطة . وأثارت هذه الملاحظة حماسة الحاضرين ، ورأى قسيس القرية من واجبه أن يؤكد للسيد باتيس أحد الزراع فيها أنه لا يشك فى أن ابنه الشاب رُبرت لم يكن يستطيع مغادرة القرية قبل ذلك التاريخ ، وأنه لا يشك فى أن صديقه الإسكاف لم يرد أن يسىء إليه بعبارته التى جاءت من غير قصد وفى غير أوانها — إذا سمح له بأن يعبر عنها هذا التعبير . وأضاف إلى ذلك أنه شخصيا يقترح أن تستبدل بكلمة « وثبوا » عبارة أخرى مثل « لبوا بشهامة » لأن هذه العبارة الثانية أكثر انسجاماً مع فكرة الآنسة تريفر ، وأنه يعرض رأيه هذا على المجتمعين راجياً أن يعدلوا النقش حسب الصورة المقترحة .

وقاطعه المستر كليتن بدال القرية وبزازها قائلا إنهم يتعجلون الأمور ؛ ثم أضاف إلى ذلك « ولنفرض أنكم وافقتم على صنع فوارة من رخام فمن الذى يصنعها لكم ؟ هل يصنعها أهل القرية أنفسهم أو هل تأتون بالنحاتين والمهندسين وأمثالهم من لندن ؟ وإذا جئتم بهم منها ... » ونظرت

الآنسة تريفر إلى القسيس نظرة أذن لها على أثرها بالكلام فقالت إنها قد أسرّت إلى القسيس قبل هذه اللحظة أن لها ابن أخ فى لندن يدرس الفنون الجميلة وأنه يسره من غير شك أن يطلب إلى أحد كبار الفنانين أن يضع لهم تصميم فوارة جميلة حقا .

وعندئذ وقف إسكاف القرية وقال : إنه يحب أن يسألهم قبل كل شيء سؤالين لا أكثر . فأما أولهما فهو « بأى ترتيب تنقش أسماء المحاربين الأبطال ؟ » وأجابه القسيس بقوله : « إنه وإن لم يفكر فى هذا الموضوع من قبل يظن أن ترتيب الأسماء حسب الحروف الهجائية هو خير طريقة لكتابتها » . وأعجب الجميع بهذا الرأى السديد ، وكان أشدهم إعجابا به كبير ملاك القرية الذى لم يكن قد بدأ يتدخل فى النقاش بعد . وواصل الإسكاف حديثه قائلا : « ذلك ما كان يجول بخاطرى عندما توجهت بالسؤال إليكم . أما السؤال الثانى فهو : وماذا يخرج من الفوارة ؟ » وأجابه القسيس مندهشا بعض الدهشة : « إن المفروض أن الفوارة سيخرج منها ماء » . وعندئذ جلس الإسكاف ولم يرد على القسيس بكلمة .

وجدير بى أن ألاحظ أن قريتنا بطيئة فى كل شيء ، وأن لفظ « الوثوب » لم يكن اللفظ الذى ينطبق على حركاتنا العقلية والجسمية فى أى وقت من الأوقات . ومن أجل هذا لم يكن غريبا ألا يدرك باتيس فى الحال أن اسم ولده سيكون من أوائل الأسماء التى ستكتب على الفوارة لأنه يبدأ بحرف الباء . فلما أدرك ذلك تذكر أن الإسكاف لم يرد على أقوال القسيس بشيء ، وأن ذلك راجع إلى ما كان يجول بخاطره حين سمع أن الأسماء ستكتب بترتيب الحروف الهجائية ؛ وعندئذ ثارت ثائرته وقال

مغضبا : « كنت أحب أن يصرح بعض الناس بما فى ضمائرهم حتى يعرف الحاضرون فى هذا المجتمع بعضهم بعضا . » وأجاب الإسكاف بقوله : « إن فى وسع الإنسان عادة أن يكشف عما فى ضمائر بعض الناس ثم لا يخطئ كثيرا فى هذا » . وفى هذه اللحظة قام كبير ملاك القرية فضاعت أقوال الإسكاف وسط هتاف الحاضرين وتصفيقهم .

وبدأ خطابه بقوله : « إنه . . . لم . . . يكن . . . يريد . . . أن . . . يقول شيئا . ولكنه فكر أخيرا . . . فى أن يقول كلمة . . . فى موضوع . . . موضوع يعرفونه كلهم . . . وهو موضوع . . . المال . . . ، ذلك أنهم إذا لم يحددوا . . . مركزهم . . . المالى . . . بالضبط . . . فإن من الواضح أن . . . إن من الواضح . . . إن من الواضح جدا . . . ، نعم إن المسألة مسألة مركزهم المالى » . ثم جلس .

وقال القسيس إن عبقرية السير جون وسرعة خاطره قد أنجتهم هذه المرة كما أنجتهم كثيرا من قبل من أخطار العجلة والتهور ؛ فقد كانوا فى الحقيقة يسيرون بغير روية . نعم إن صديقتهم العظيمة الآنسة تريفر قد عرضت عليهم اقتراحا لا يخطئ إذا قال إنه اقتراح فذ جميل ، ولكن الذى يؤسف له حقا أن المال فى هذه الأيام السود عنصر لا يمكن إغفاله . ثم سأل الحاضرين كم من المال عندهم ؟

ونظر المجتمعون إلى السيرجون وهم جميعا صامتون ، ولكن السيرجون لم ينبس ببنت شفة . وقام الشاب شارلى رد من المكان الذى كان مخصصا فى الاجتماع لشبان القرية وقال إنه يريد أن يقول كلمة صغيرة إذا أذن له المجتمعون . ورد عليه القسيس قائلا إن من حق الشبان أن يتكلموا ، فقال

شارلى إنه يريد أولا أن يعبر عن احترامه الشديد للآنسة تريفر ، وهى سيدة محترمة كثيرا ما أرسلت له الهدايا فى الميدان هو وسائر شبان القرية ، وأن يقول بعد ذلك إنه إذا كان بعض الشبان قد انضم إلى الجيش قبل غيرهم فإنهم كلهم لم يدخروا وسعا فى أداء واجبهم ، كما أداه الذين بقوا منهم فى بيوتهم ، وإنه يسره كما يسر رفقاءه أن يعودوا ليروا أهل القرية كلهم بخير سواء عليهم أأقاموا لهم نصبا أم لم يقيموا ، وإن المستر باتيس الفلاح والمستر بيورى الإسكاف فى نظرهم سواء ، وهـذا كل ما يريد أن يقوله ليعبر به عن رأيه ورأى الشبان ، وهو يرجو ألا يكون فيـه ما يسىء إلى أحد من الحاضرين .

ولما هدأت عاصفة التصفيق التى أعقبت هذا الـكلام قام المستر كايتن وقال إنه يكرر ماقاله من قبل ، وهو أنهم قد تسرعوا فى الأمر أكثر ممـا يجب . وسأل : هل هم حقيقة يريدون إقامة فوارة ؟ ومن هم الذين يريدون إقامتها ؟ . وقال القسيس : « إن الفوارة تـكون أثرا جميلا يذكر أطفالهم بالأوقات العصيبة التى مرت بالبلاد فى هذه السنين » . وسأل الإسكاف : « هل يريد ابن المستر باتيس أن يقام فى القرية تذكار لـ . . . ؟ » فرد عليه القسيس قائلا ألا داعى لذكر الأسماء فالموضوع موضوع عام لاموضوع خاص .

وأخيرا قام صاحب حانة القرية وقال : « إننا نحتفل هنا بعودة السلام ، ولـكن هل فيكم من يفهم معنى لفظ الاحتفال ؟ الاحتفال معناه أننا نحتفل ، ومعنى ذلك أن نجلس منشرحين مسرورين كما يليق بالإنجليز ، وأن نحتفل احتفال الإنجليز ، وعليكم أولاً أن تعرفوا كم من المال لديكم كما قال النسيرجون بالضبط . ذلك هو الحق الذى لامرية فيه ، وإذا شئتم بعد

ذلك أن تتركوا الأمر لى « أنا » كان من أسباب فخرى أن أؤدى لكم ما أستطيع أداءه ، وأنتم تعرفون حق المعرفة ما أستطيع . فإذا قمتم بواجبكم نحوى قمت أنا بواجبى نحوكم ؛ وإذا عرفت كم من المال لديكم ، وكم منكم يريدون أن يجلسوا أو يحتفلوا بدأت عملى على الفور ، وهذا كل ما أريد أن أقوله عن الاحتفال . »

واشتدت حماسة المجتمعين حين سمعوا اقتراح صاحب الحانة ، ولكن القسيس نظر إليه شزرا ، وهمس فى أذن كبير ملاك القرية ، وهز ذلك الكبير كتفيه ونطق ببضع كلمات لم يسمعها أحد ، قام على أثرها القسيس واقفا وقال بأعلى صوته : « إنه يسرهم من غير شك — يسرهم وإن لم يدهشهم — أن يسمعوا أن كبير الملاك قد قرر ، كرما منه وحبا لأهل القرية ، أن يفتح لهم أبواب بساتينه وأراضى صيده فى ذكرى يوم السلام ، وأن يأخذ على عاتقه هو واجب الاحتفاء بهم ، ومن أجل هذا فهو — أى القسيس — يطلب إليهم بأن يهتفوا بحياة سيرجون ثلاثا » .

وردد الجميع الهتاف على الفور وانفض الاحتفال .

الزكام

بقلم

رجنلد استيورت هوبر Reginald Stewart Hooper

١٨٨٩

درس القانون وتخرج فى جامعة أكسفرد واشتغل بضع سنين بتدريس القانون ، ثم انتقل إلى الصحافة وأصبح فى عام ١٩٣١ رئيسا لتحرير جريدة The Bystander (المتفرج) ، وانتقل منها فى عام ١٩٤٠ إلى جريدة التاتلر .The Tattler (المحدث) وهى صحيفة حديثة العهد تسمت باسم صحيفة استيل القديمة .

٢٨

هأنذا مصاب بالزكام أو بعبارة أصح ها قد بدأت إصابتى بالزكام . لقد جاء فى هذا العام متأخرا عن موعده ، فلم يصبنى إلا منذ ثلاثة أيام ، مع أنه يصيبنى عادة قبيل هذا الوقت فى فصل الشتاء ويلازمنى بضعة أشهر . وكان أمره فى هذا العام أمرا عجيبا ، فقد استهل شهر نوفمبر وطلع على العالم المزكوم كله ، ومع ذلك فلم يكن زكامى قد جاءنى ليستقبل هذا اليوم معى . وكان من عادته أن يجيئنا فى الأسبوع الأخير من شهر اكتوبر لا يتأخر عنه أبدا ، كأن الاثنين على موعد ؛ فلما تأخر فى هذه السنة دهشت لذلك بطبيعة الحال ، ولم أدر ما أصابه فأخره عن موعده . وما من شك فى أن

خطأ قد وقع فى ناحية ما ، وقد يكون الذنب ذنب تيار الخليج ، وقد يكون ذنب نظرية النسبية ، وقد يكون ذنبهما معا . وفكرت فى أن أطلب الطبيب لأسأله عما يشير على به ، والأطباء بطبيعة الحال أعلم الناس بما فى الإخلال بنظم الطبيعة من الخطر الشديد ، ولا شك فى أن طبيبى كان يزعجه هذا الإصرار والعناد . لقد وقعت فى البلاد إصابات بالزكام كثيرة ، وظللت أنا فى هذا اليوم من السنة سليما منها ، لم أضع قط منديلا على أنفى ، فى حين أنه كان فى مثل هذا الوقت من العام الماضى أحمر اللون ، موسيقى الصوت إلى حد جعل أصدقائى يشيرون على بأن أعزف لهم إحدى القطع الموسيقية على أوتاره . وفى السنة التى قبلها ضربت الرقم القياسى فى الأسرة كلها فى العطس ، وقضيت عيد الميلاد فى الفراش ، وأخرجت من إحدى الحفلات المسائية لكثرة السعال . وفصول الشتاء السابقة تشهد كلها بما أصابنى من الزكام وبمقدار صبرى عليه . ولما كنت أنا أسير العادة خاضعا لحكمها على الدوام ، فإن فى وسع القارئ أن يدرك ما استولى على من الفزع حين تأخر الزكام عن موعده ؛ ولو أن أسبوعا آخر قد مضى دون أن أعطس لكان فيه الطامة الكبرى .

وقررت أخيرا ألا أتحدث إلى الطبيب ، وأن أحتفظ لنفسى بمتاعبى ، وألا يعرف أحد أن بسماتى الظاهرة تخفى وراءها سرا خفيا هو الخوف من ألا أكون كما أشتهى ، وأحسست أن حالتى شبيهة بحال أولئك اليونان الأقدمين الذين جمعوا من الثروة ما حسدتهم عليه الآلهة فأرسلوا عليهم الصواعق لتطهرهم من زهوهم وغرورهم . وكان ذلك علاجا شديدا ولكنه كان على الدوام علاجا ناجحا ؛ وماذا لو حل بى شىء مثل هذا ، فيقبل

شهر ديسمبر من غير أن أعطس عطسة واحدة ، وتمر حفلات عيـد الميلاد خالية من آثار القشعريرة ، ثم ينقضى يناير وفبراير وعيناى جافتان من الدمع ورئتاى نظيفتان من البلغم . ويظل صدرى سليما من وائحة دهن الإوز الخالدة الأثر ، وحلقى لم تتردد فيه قرقرة المـاء المعطر ، ثم تنسى أمعائى لذة ما كان يدخل فيها من شراب القرفة ، وما كانت تعانيه من وخز السكينين ؛ ويقبل شهر مارس كالأسد الرابض فيجدنى أرتجف فى انتظار البرد كما يرتجف الحمل فى انتظار سكين القصاب ، ثم تعصف العاصفة وتهب الرياح الشرقية محملة بملايين الجراثيم تتغلغل فى جسمى ، حتى إذا جاء شهر إبريل لزمت فراشى مصابا بأوجاع المفاصل ، فيطوف بى العلماء الإخصائيون ، والأطباء النطاسيون ، والممرضات البارعات ، وفى أيديهم زجاجات المـاء الحار ، والأدهنة والأصباغ ، والعقاقير وماإليها من أدوات حجرة المريض ، ثم يوشك شهر إبريل على الانتهاء ويحل الربيع ولا أشهد حفلات أعياده ، فإذا جاءنى الرفاق فى الصباح الباكر لم أرد عليهم الجواب ، وأسمع الطيور تشدو أغانى الربيع الأولى ، وتنشر أجنحتها لتتلقى ضياء الشمس وحرارتها وتبنى أوكارها لتضع فيها بيضها وأظل أنا . . . »

فإذا تصور القارئ بعدئذ أننى نجوت من هذا وأصبت بالزكام فعلا ، بدا له أن الشواهد الأولى على قرب نجاتى من هذه الحال كانت بشائر بركة ورحمة . والحق أننى قبل أن أشعر بأعراض الزكام كنت قد بدأت أتضايق وأتململ ، إذ أصيب به كل أصدقائى ولم يبق إلا أنا ، وكانوا إذا سألونى « كيف حال زكامك ؟ » أجبتهم على الرغم منى بصوت خافت قلق : « لا ، لم أصب به » فـكانوا يقولون : « ألم تصب بالزكام بعد ؟ هذا أمر غريب !

لقد أصيب به كل الناس . إنه يلازمنا منذ أيام ولا نستطيع التخلص منه . إن الزكام الذى يصيب الناس فى هذا العام زكام عجيب . . . لايشبه فى شىء زكام العام الماضى . . . » إلى غير هذا من الأقوال . وكنت أقول فى نفسى إن زكامى لن يحل بى حتى يكون الناس كلهم قد تخلصوا من زكامهم ، ومضت عليهم بعد تخلصهم منه عدة أسابيع ، ولن أجد أحدا يقارن أعراض زكامه بأعراض زكامى ، ولن يعنى أحد بى أو يعطف علىّ . وسيقولون دون شك : « عجيب أن يصاب إنسان بالزكام الآن ! لقد تخلصنا من زكامنا من زمن طويل » . وما من شك فى أن هؤلاء القساة الغلاظ القلوب لن يعدونى زميلا لهم يعطفون عليه ويُعيرونه الأدوية والمناديل . . .

وإذاً فلم يكن ثمة عجب فى أن أصحو منذ ثلاثة أيام وقد انمحى من عقلى هم ثقيل (تحول عنه إلى صدرى) ، فجلست على سريرى وأخرجت مافى حلقى ورفعت صوتى فرحاً مغتبطا شاكراً وقلت : « هأنذا قد أقبل علىّ البرد فى رأسى وفى أنفى وفى صدرى » . ولم يأت المساء حتى كان قد استحوذ على جميع جسمى ، وفى صبيحة اليوم التالى خرجت إذ ظننت أنه زال ، وأيقنت أنى أسأت إليه من غير قصد وبطريقة ما فى الليلة الماضية . وسواء كان هذا أو لم يكن فإنى افتقدته فى الصباح فلم أجده ، ولم يكد يحين موعد الإفطار حتى لم يبق له أثر ، وبعد الغداء أخذت أقتفى أثره بأن خرجت فى العراء من غير معطف ، وفى موعد الشاى أحسست به يعود بخطى بطيئة ولكنها أكيدة ، ولما جن الليل كنا قد التقينا مرة أخرى ، وزال كل ما كان بيننا من جفوة . على أننى مرت بى بالأمس لحظات كنت فيها

قلقا مضطرب البال . أما اليوم فلا شك فى أنه ظفر بى أو بعبارة أصح ظفرت به تمام الظفر .

وسأعود هذه الليلة إلى ما تعودته من قبل حتى لـكأنه من المواسم الدينية . فسآكل فى العشاء أكثر ماأستطيع أكله ، وسأجلس بالقرب من النار على الـكرسى ذى المتكأ ، وأضع فى الموقد أكثر ما يسعه من الفحم ، ثم أغمض عينى وأسلم نفسى لسبات عميق كثير الغطيط . وسأكون فى هذه الليلة مُتزملا مدَّثِّرا كالشيخ الطاعن فى السن ، أو بعبارة أوضح سأكون فتى مصابا ببرد شديد ، هو برد الشتاء الذى سيلازمنى حتى يحل العام الجديد . وسوف أودعه قبيل عيد الفصح وداع الآسف عليه ، لا الغاضب منه ، لأنه زميل قديم عرفت طباعه وعرف طباعى . نعم إننا نفترق فى فترات خلال العام ، فيتركنى أحيانا أسبوعا أو أسبوعين ، ولـكنه يعود دائما ويجدنى متاهباً لتسوية ماشجر بيننا من خلاف ، وإزالة جميع آثار الماضى .

وفى هذه الليلة ستمثل الرواية القصيرة القديمة التى نستقبل بها عادة هذا الصديق المبذر ؛ فسنعد له الشاى والزنجبيل والسكر والماء ؛ أما الليمون فلست واثقا من وجوده . وسأرتشف هذا الرحيق وأنا فى الفراش ، ينتابنى الصداع فى رأسى والألم فى حلقى . وسأبتلع مع آخر جرعة منه قرصين من الإسبيرين ، وأنام بعد ذلك نوما عميقا . وإذ كنت أكثر الناس عقلا وأعظمهم صبرا ، فلن أخدع نفسى فأظن أنى سأبرأ من الزكام بمثل هذه الأشياء . نعم إن بعض الناس ، وهم قليلون ، يستطيعون أن يتقوا الزكام بعدم الاهتمام بملابس الشتاء وارتداء الملابس الداخلية الخفيفية على الدوام ،

لكن الذى يحاول الشفاء من البرد بعد أن يصاب به إنما يحاول المستحيل ، ولست أنا هذا الرجل . إن الزكام يصيبنى فاشرب الشراب الدفء ، وأبتلع أقراص الدواء ، وأعانق زجاجات الماء الحار ، ولكنى لا أبلغ من الحمق مبلغا يخيل إلىّ معه أننى سأشفى منه بهذه الوسائل ، بل أفعل هذا وأنا موقن أن البرد لن يزول قبل أن يمضى الزمن الذى يريده هو . على أننى أعلم أيضا أن من واجبنا أن نحرص على العادات القديمة ، وأن نجلها ونقدرها حق قدرها ، ولن يكون ذلك التقدير بالتخلى عنها بل بالاستمساك بها . ذلك ما يتوقعه منى زكامى ، وأنا موقن أنى لن تتحسن حالى فى الصباح . أما إذا جاء عيد الفصح فمن يدرى ... ؟

محتويات الكتاب

سلسلة الفكر الحديث

الكتب التى ظهرت

(١) دعائم السلام

(٢) فنون الأدب

(٣) الوسائل والغايات

(٤) فى التربية

(٥) قناة السويس

تطلب كلها من لجنة التأليف والترجمة

٩ شارع الكرداسى . عابدين

تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

ومن جميع المكاتب الشهيرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر